تجليد كتب
ص الدقر

131.3
A13iA
c.1

مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية

يشرف على إصدارها: الدكتور منصور فهمي باشا رئيس الجمعية، والدكتور علي عبد الواحد وافي وكيلها

٨٦

العلاج النفساني

قديما وحديثا

تأليف

حامد عبد القادر

خريج جامعتي اكستر ولندن

الأستاذ بكلية دار العلوم

وعضو الجمعية الفلسفية المصرية

١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م

68101

مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده

دار إحياء الكتب العربية

عيسى البابي الحلبي وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

تمخضت النهضة المصرية عن يقظة فكرية مباركة ، يغتبط بها كل من يحب مصر ، ويسر لها كل مخلص فى خدمتها . ونرى أن من أهم مظاهر هذه اليقظة الاتجاه إلى تعرف عيوبنا الفردية والاجتماعية ، والإلمام بأسبابها ووسائل علاجها . ولا يخامرنى شك فى أن أول ما يجب أن يعنى به الفرد أن يدرس نفسه التى بين جنبيه ، فيحيط بنزعاتها ونزواتها ، ويعرف عيوبها وأمراضها ، ويعلم أسباب شذوذ سلوكه ، وخروجه عن الطريق السوى ، الذى يرتضيه ذوو الألباب السليمة ، وتقره الشرائع القويمة .

وقد توجهت أذهان القدماء والمحدثين من الأطباء إلى دراسة أمراض الجسم ، ومعرفة أسبابها ، ووسائل علاجها فأجادوا فى ذلك وأفادوا . ولم يشغلهم ذلك عن البحث فى أمراض العقل ، وتعرف وسائل علاجها ، فأصابوا حيناً وأخطئوا حيناً ؛ ذلك لأن العقل البشرى تكتنفه الأسرار ، وتحيط به المعميات ، وتقف فى سبيل تعرف أسراره العقبات وتكثر الزلات .

ولا غرو فهم يحاولون إدراك أسرار الروح ، والروح من أمر الله ، الذى يعلم السر وأخفى . ومع ذلك فقد هدتهم تجاربهم ، وألهمهم ملهم الحكمة والهادى إلى الصواب ، فعرفوا كثيراً من أسرار النفس ، وألموا بوسائل علمية لا يستهان بها لعلاج أمراضها وعيوبها ، وقد وفقوا فى ذلك أو كادوا .

وقد رأيت أن أغذى تلك النهضة الموفقة ببحث موجز عن العلاج النفسانى ، لأفتح الطريق للباحثين ، وأمهد السبيل للسالكين ، فقدمت هـذه المجالة لقراء العربية ، فى أسلوب سهل خال من التعقيدات العلمية والمعميات الاصطلاحية ، راجياً من الله تعالى أن يجدوا فيها فائدة تساوى على الأقل الجهود التى بذلت فى إخراجها .

وإنى أعترف بادئ بدء أنى لست أول من سمى هذا البحث « العلاج النفسانى » فقد وقع نظرى على هـذه التسمية منذ نيف وعشرين سنة ، حينما كنت أقرأ كتاباً اسمه « جهارمقا له » أى المقالات الأربع ، ألفه بالفارسية العلامة النظامى العروضى السمرقندى حوالى سنة ٥٥٠ هـ .

اطلعت فى هـذا السفر القيّم على روايات يرويها المؤلف عن براعة ابن سينا فى «العلاج النفسانى»! ، وقرأت فيه حوادث حدثت لهذا الرجل النابه ، تبرهن على هذه البراعة .

وقد كان هـذا أول دافع دفعنى إلى الاهتمام بهذا الموضوع ، فقرأت كثيراً مما كتبه عنـه المعاصرون باللغة الإنجليزية ؛ ثم رجعت إلى كتاب القانون لابن سينا ، وقرأت فيـه بعض فصول خاصة بالأمراض العقلية وطرق علاجها ، فثبت لى مارواه النظامى عن نجاح ابن سينا ومهارته فى العلاج النفسانى .

وإذ قد وجدت فى كتاب القانون مابهرنى وأعجبنى قلت فى نفسى : يا لله ولهؤلاء الفرنجة ! إنهم إما جهلة وإما حقدة ؛ فإن لم يكونوا قد اطلعوا على ما أتى به ابن سينا وغيره من أطباء العرب من العجب العجاب فى علاج الجسم والعقل ، ومداواة شذوذ النفس وتقويم الخلق بأساليب نفسية ـ فهم جهلة ، وإن كانوا قد اطلعوا على علم العرب الغزير فى هذا الموضوع ومهارتهم الفنية الفائقة فى ممارسته ، فهم حقدة لا يعترفون بالفضل

لدويه ، ولا يردون الفروع إلى أصولها ؛ إذ لم أعثر فيما قرأت من كتبهم ـ وهو ليس بالقليل ـ على كلمة واحدة يشيرون بها إلى ما كان لابن سينا والرازى وغيرهما من فضل السبق فى علاج الجسم والعقل بوسائل عقلية ، علاجاً يستند إلى أساس علمى، ولا إلى ما كان لابن مسكويه والغزالى وغيرهما من فضل فى بيان علاج النفس والشذوذ الخلقى بوسائل نفسية أيضاً .

هذا الاصطلاح إذاً ليس من مستحدثات العصر ، والعلم أو الفن الذى يدل عليه ليس هو أيضاً من مبتكرات الحضارة الحديثة .

وليس لأحد من علماء العربيـة أن يستنكر كلمة « نفسانى » بحجة أن النسبة الصحيحة هى « نفسى » كما يقضى به القياس . ولست أزعم أن هـذه النسبة جارية على القياس ، ولـكنى أقرر أنها نسبة سماعية صحيحة مألوفة لها نظائر كثيرة ؛ ألا ترى أنهم يقولون : روحانى ، وجسمانى ، وربانى ، وصمدانى ، ونورانى ، نسبة إلى روح ، وجسم ، ورب ، وصمد ، ونور ؟

ثم إنى أفضل فى هذا المقام « نفسانى » على « نفسى » ؛ إذ قد يفهم من العلاج النفسى العلاج المنصب على النفس ، مع أن الغرض هو العلاج بوساطة النفس ، سواء أكان المعالَج هو النفس أو الجسم . وقد يفهم من النفسى أيضاً « الذاتى » ويكون الغرض علاج الإنسان لنفسه بنفسه سواء أكان مرضه نفسياً أو كان جثمانياً ، وسواء أكانت الطريقة التى يتبعها طريقة جثمانية أى مادية أم كانت نفسانية أو روحانية ، مع أن الغرض هو العلاج بوساطة النفس بقطع النظر عمن يتولى العلاج .

وهذا الاصطلاح أفضل أيضاً من « شفاء النفس » أو « دواء النفس » لأسباب لا تخفى على الباحث المحقق .

فتمشياً مع أسلوب القدماء ودفعاً للبس آثرت هذه التسمية؛ إذ لا يفهم منها إلا العلاج بوسائل نفسية ، بقطع النظر عن المرض . أما علاج النفس بوسائل عقلية فهو الشائع بين القدماء والمحدثين؛ فكل من الفريقين يعترف بإمكان علاج الأمراض العقلية بطرق عقلية أيضاً . وأما علاج المرض الجثمانى بوسائل نفسية فقد حاوله المتقدمون ونجحوا فيه كما سترى ، ولكنه موضع خلاف بين المحدثين ؛ فمنهم من يقره بل يؤكده كالعلماء المسيحيين Christian Scientists ، ومنهم من ينكره وهم الأغلبية الكبرى من الأطباء الجثمانيين .

بقيت طريقة العلاج الجثمانى أى العلاج بوسائل مادية؛ كتناول الأدوية والعمليات الجراحية . وليس هناك أدنى شك فى نجاحها فى علاج الأمراض الجثمانية ، فإنها هى الطريقة الوحيدة التى يتبعها الأطباء الجثمانيون فى معالجة مرضى الأجسام ، أما اتباعها فى علاج مرضى العقول فموضع خلاف بين أطباء الجسم وأطباء العقل، فالفريق الأول يقرها، بل منهم من يسخر من اتباع غيرها فى علاج أمراض العقل ؛ اعتقاداً منهم أن جميع الأمراض العقلية لابد أن تنشأ عن خلل فى تكوين الجهاز العصبى، أو عجزه عن تأدية وظائفه ، أو عن اضطراب فى الإفرازات الغدية الباطنية . وسنعرض رأى هؤلاء بالتفصيل فيما سيأتى .

أما أنا فأميل إلى رأى ابن مسكويه فى هذا الموضوع . وخلاصته أن من الواجب أن نتعرف سبب المرض؛ فإن كان هو إصابة جزء من أجزاء الجسم بعطب وجب اتباع طريقة العلاج الجسمانى. وإن كان السبب عقلياً بحتاً وجب اتباع طريق العلاج النفسانى كما فى الأمراض الناشئة عن صدمة انفعالية ، أو عن قلق نفسى ، أو عن كبت بعض الغرائز وتكون بعض العقد النفسية .

أما معالجة الأمراض الجثمانية البحتة بطريق العقل ، ومعالجة الأمراض العقلية البحتة بطريق الجسم فلم يصلا بعد إلى درجة تدعو إلى الاطمئنان. وأرجو أن يلاحظ أن فى استعمال كلمة « بحتة » فى الحالين شيئاً من التجوز ؛ فإن الأطباء يقررون أن كل مرض جثمانى لابد أن يصحبه مرض عقلى أو تأثر عقلى . وأن كل مرض عقلى لابد أن يصحبه شىء من ضعف الجسم؛ بحجة أن الجسم والعقل متصلان تمام الاتصال فما يؤثر فى أحدهما لابد أن يؤثر فى الآخر .

وإنى لست أحذو حذو المحدثين فى عدم الاعتراف بالفضل لذوى الفضل ، فأنكر ما لرجال العصر الحاضر من فضل فى تنمية هـذا الفن أو العلم ؛ فقد توسعوا فى دراسته ، وأقاموا بناءه على قواعد متينة ، وعالجوه من جميع نواحيه ، حتى بلغوا القمة أو كادوا .

ولعلك تفهم مما سبق أن للعلاج النفسانى ناحيتين ناحية علمية وأخرى فنية ؛ أما العلميـة فتشمل أصوله وقواعده ، وتبيّن الأمراض العقلية وأسبابها ، وكيفية تشخيصها ، وتصف طرائق علاجها .

وأما الناحية الفنية فيراد منها تولى العلاج بالفعل مع تطبيق الأصول والقواعد التى أقرها علماء النفس بوجه عام، وعلماء العلاج النفسانى بوجه خاص .

ومن هذا ترى أن « فن العلاج النفسانى » متوقف فى نجاحه على « علم العلاج النفسانى » . وسترى فيما سيأتى أن اختلاف أطباء العقول فى طرق العلاج يرجع إلى اختلافهم فى كيفية تكون العقل ، وفى الأسباب التى تؤدى إلى المرض العقلى ، وما ذلك إلا لأن العلاج بالعقل يستند إلى أسس نفسية أو فلسفية عقلية ، وبديهى أن الاختلاف فى تقرير السبب فى المرض يؤدى إلى الاختلاف فى طريق علاجه .

فالعلاج النفسانى باعتباره فناً مرتبط تمام الارتباط بالعلاج النفسانى باعتباره علماً؛ مثله فى ذلك مثل الطب الجثمانى ؛ فهناك علم الطب ، وفن الطب وهذان مرتبطان تمام الارتباط .

هذا وإن للعلاج النفسانى تاريخاً طويلاً حافلاً بالحوادث الجسام ، يبيّن لنا كيف نشأ ودرج ، ثم نما وترعرع ، ثم قوى واستوى حتى قارب الكمال ، فدونت له أصول ووضعت قواعد ، وتنوعت طرائقه وتقدمت ، واتخذ كل فريق من الأطباء طريقة خاصة يرتضيها . وتبياناً لهذا كله وضعت هذا الكتاب ورتبته على بابين وخاتمة .

أما الباب الأول فيتضمن عرضاً تاريخياً موجزاً للعلاج النفسانى . وأما الثانى فيبحث فى أسباب الأمراض العقلية وطرائق علاجها .

ولتمام الفائدة أتبعت هذين البابين خاتمة فى كيفية تطبيق مبادئ العلاج النفسانى على التربية والتعليم .

والله أسأل أن يلهمنا التوفيق والهداية إلى أقوم طريق ؟

المحرم سنة ١٣٦٦
ديسمبر سنة ١٩٤٦

حامد عبد القادر

الباب الأول

أعرض تاريخى للعلاج النفسانى

باب الباء

والسفنا والعلا وتحية تدفع

الفصل الأول

العلاج النفسانى قبل ظهور السيد المسيح

(١) العلاج بالسحر

---

(١) تمهيد : السحر وتأثيره فى النفوس :

إن علاج الأمراض الجثمانية والعقلية بوسائل نفسانية ليس من مبتكرات العصر الحاضر كما قلنا فى المقدمة ، ولم يترك القدماء للمحدثين إدراك العلاقة الوثيقة التى بين الجسم والعقل ، فقد دلت الدلائل على أن القدماء كانوا يعتقدون أن للقلق النفسى تأثيراً فى إحداث الأمراض ، وأن الإيحاء والاعتقاد فى التخلص من المرض من عوامل البرء والشفاء .

ويميل بعض العلماء إلى الاعتقاد بأن قطعًا من جمجمة الإنسان كانت تستخدم فى قديم الزمان تمائم يقصد بها الشفاء من المرض ؛ فصناعة الطب النفسانى قديمة مرّت عليها الأجيال وتعاقبت الدهور . ويكاد يكون الخلاف بين القدماء والمحدثين فى هذه الصناعة محصوراً فى التأويل والتعليل، وربط الأسباب بالمسببات ؛ فقد اعتقدالقدماء أن التمائم والرقى هى التى تبرئ المريض ، أما المحدثون فيرون أن السبب المباشر فى الشفاء هو اعتقاد المريض وإيمانه بأنه سيبرأ بهذه الواسطة .

ومن مظاهر الاختلاف بين الفريقين التنظيم والترتيب ، وبسط القواعد ، وشرح

الأصول ورجعها إلى حقائق أو مبادئ نفسية .

والطب جثمانياً كان أو نفسانياً باعتباره علماً مهذباً ، مفصلاً مبوباً أو فنّاً راقياً يستند إلى أصول وقواعد ثابتة هو فى الواقع وليد السحر والشعبذة والتنجيم، وغيرها من الأعمال التى مارسها القدماء فى معالجة المرضى . ولعل السحر هو أهم هذه وأبعدها أثراً فى معالجة الأمراض النفسانية .

يقول الراغب الأصفهانى[١] فى المفردات : « السُّحارة ما ينزع من السَّحَر (= طرف الحلقوم) عند الذبح فيرمى به ... »

« وقيل منه اشتق السِّحر وهو إصابة السَّحَر . والسحر يقال على معان الأول : الخداع وتخييلات لا حقيقة لها نحو ما يفعله المشعبذ بصرف الأبصار عما يفعله لخفة يده ، وما يفعله النمام بقول مزخرف عائق للأسماع. والثانى استجلاب معاونة الشيطان بضرب من التقرب إليه ... والثالث مايذهب إليه الأغتام[٢] . وهو اسم لفعل يزعمون أن من قوته أن يغير الصور والطبائع ، فيجعل الإنسان حماراً . ولا حقيقة لذلك عند المحصلين . »

ويقول ابن خلدون[٣] فى المقدمة فى الفصل الذى عقده للسحر :

« والنفوس الساحرة على مراتب ثلاث يأتى شرحها ؛ فأولها المؤثرة بالهمة فقط من غير آلة ولا معين ، وهذا هو الذى تسميه الفلاسفة السحر ؛ والثانى بمعين من مزاج الأفلاك أو العناصر أوخواص الأعداد، ويسمونه الطلسمات، وهو أضعف مرتبة

---

(١) هو الشيخ أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل الراغب الأصفهانى صاحب المؤلفات المفيدة فى اللغة والفلسفة والأخلاق وقد توفى فى أوائل المائة الخامسة من الهجرة .

(٢) الأغتام الأعاجم .

(٣) ولد ابن خلدون سنة ٧٣٢ هـ وتوفى سنة ٨٠٨ هـ .

من الأول. والثالث تأثير فى القوى المتخيلة؛ يعمد صاحب هذا التأثير إلى القوى المتخيلة فيتصرف فيها بنوع من التصرف، ويلقى فيها أنواعاً من الخيالات والمحاكاة، وصوراً مما يقصده من ذلك، ثم ينزلها على الحس من الرائين بقوة نفسه المؤثرة فيه، فينظر الراءون كأنها فى الخارج، وليس هناك شىء من ذلك. كما يحكى عن بعضهم أنه يُرِى البساتين والأنهار والقصور وليس هناك شىء من ذلك، ويسمى هذا عند الفلاسفة الشعوذة والشعبذة. »

« هذا تفصيل مراتبه. ثم هذه الخاصية تكون فى الساحر بالقوة، شأن القوى البشرية كلها، وإنما تخرج بالفعل بالرياضة. ورياضة السحر كلها إنما تكون بالتوجه إلى الأفلاك والكواكب والعوالم العلوية والشياطين بأنواع التعظيم والعبادة والخضوع والتذلل. »

« واعلم أن وجود السحر لا مرية فيه بين العقلاء من أجل التأثير الذى ذكرناه. وقد نطق به القرآن ... وأما وجود السحر فى أهل بابل وهم الكلدانيون من النبط والسريانيين فكثير، ونطق به القرآن وجاءت به الأخبار. وكان للسحر فى بابل ومصر أزمان بعثة موسى عليه السلام أسواق نافقة، ولذا كانت معجزة موسى من جنس ما يدعون ويتنازعون فيه. »

ويمضى ابن خلدون بعد ذلك فيقرر أنه رأى بعينى رأسه بعض السحرة يتناولون السحر؛ من ذلك أنه رأى: « من يشير إلى كساء أو جلد ويتكلم عليه فى سره فإذا هو مقطوع متخرق، ويشير إلى بطون الغنم كذلك فى مراعيها فإذا أمعاؤها ساقطة من بطونها إلى الأرض. »

وقد ورد فى « قاموس الفلسفة وعلم النفس[١] » ما خلاصته :

« إن لممارسة السحر تاريخاً طويلا فهو من الأعمال التى شاع أمرها بين القبائل والأمم البدائية ، وقد ظل كثير من الناس يمارسونه فى جميع مراحل الحضارة، ولا تزال آثاره باقية حتى الآن فى عصرنا هذا .

«ويطلق السحر على أى عمل من مجموعة كبيرة من الأعمال المختلفة، التى تعزى إلى أسباب غامضة ، أو عوامل سرية ، أو قوى خفية لا يعرفها عامة الناس . »

«وقد استمد الساحر قوته من الآلهة أو من أرواح تأتى من عالم الغيب فتحتل جسده، وتساعده على القيام بعمله . وكثيراً ما كان السحرة يدعون أنهم يعملون أعمالهم السحرية بالاتصال بتلك الأرواح اتصالا يخفى أمره على بقية الناس . »

« وكان السحرة يستخدمون للوصول إلى أغراضهم وسائل كثيرة منها : —

(١) سلطان إرادتهم ومقدرتهم على الاستهواء .

(٢) التمسك بعبادات وتقاليد مفصلة معينة عند ممارسة السحر بالفعل، كالإشارات والحركات التى كانوا يقومون بها للتأثير فى نفوس الناس .

(٣) النطق بكلمات وعبارات مغلقة بكل جد وخشوع وتوسل .

(٤) إحراق تمثال العدو، أو إتلاف أى أثر من آثاره .

(٥) طرح النرد أو ما يسمى بطرق الحصى أو أخذ الفال .

(٦) قراءة سلسلة من الخطابات أو الرسائل لاستخراج صفات صاحبها ومميزاته الشخصية . »

« ومن بين الأغراض التى يرمى إليها الساحر :

---

(١) Dictionary of Philosophy & Psychology. Editid by Daldwin Article : «Magic».

(١) محاولة تأويل الماضى والإخبار بما غاب .

(٢) التأثير فى مجرى المستقبل .

(٣) ضبط قوى الطبيعة والتأثير فيها .

(٤) القضاء على المرض أو دفع الشر .

(٥) إعادة الصحة أو اجتلاب الخير . »

« وقد اختلفت أسماء الممارسين للأعمال السابقة وما يشبهها، باختلاف وظائفهم أو طبائع أعمالهم فكان منهم : الساحر ، والكاهن ، والمنجم ، والشعوذ ، والمتنبئ ، والحاوى . »

« ولم تكن أعمال السحرة وأقوالهم على العموم خيالية ولا وهمية ، ولكنها مع ذلك تضمنت أموراً مبهمة تنقصها الدقة والصراحة، بحيث تصلح لأن يؤولها كل شخص تأويلاً مناسباً لحالته، ويحوك منها خياله قصة كاملة يهش لها ويبش، وبخاصة إذا كان غير مثقف . »

هذه اقتباسات ثلاثة اختلفت فى مبناها، ولكنها تكاد تتفق فى معناها ، ومنها تعرف أن القدماء والمحدثين يكادون يجمعون على تقدير ما كان للسحر من تأثير فى حياة الناس عامة وفى معالجة أمراضهم خاصة .

والسحر ـ باعتباره وسيلة طبية ـ يقوم على تأثير الساحر فى نفس المريض بما له من قوة إرادة أو قدرة نادرة على الاستهواء . ومن الوسائل التى يتذرع بها للوصول إلى غرضه تلك التمتمات والهمسات والنفثات التى ينفثها فى أذن المريض بطرق خاصة، فيكون لها التأثير المطلوب .

فالسحر بهذا المعنى لا يعدو أن يكون إيحاء قوياً يتقبله المريض، ويصير ما يوحى إليه من عقائده الثابتة ، فيكون سبباً فى شفائه كما هو مشاهد فى عصرنا ؛ فالعامل

المباشر واحـــد ، ولـكن التسمية اختلفت؛ فما يعمله البدائى « سحر » ، وما يعمله المتمدين « طب » .

(٢) العلاج بالسحر فى مصر القديمة :

وأول ساحر مصرى يقص علينا التاريخ قصصه بالتفصيل هو «إمْحُتِبْ» رئيس مهندسى العمارة فى عصر الملك «زُوسِر» أحد ملوك الأسرة الثالثة المصرية التى يرجع تاريخها إلى القرن التاسع والعشرين قبل الميلاد .

وقد مارس إمحتب هذا مهنة الطب النفسانى والجثمانى بمهارة . ومعنى اسمه : «من يأتى فى سلام »، وهذا يدلنا على مبلغ تأثيره فى نفوس المرضى . وقد أسبغت عليه عدة ألقاب كريمة منها : « صاحب الأسرار » و « حامى الأطباء » و « منبع الفضيلة » و « حامى الملاحين » .

وكل هذا يدل على ما كان له من منزلة بين الشعب المصرى بوجه عام. ولما له من أسبقية ومهارة فى مهنة الطب يرى بعض أطباء العصر أن ينصب إلهاً للطب .

وقد أتى بعده فى مصر القديمة طائفة من مهرة الأطباء الذين نهضوا بهذه المهنة وأرغموا العالم الحديث على الاعتراف بأن « علم الطب نشأ فى وادى النيل » .

(٣) العلاج بالسحر فى بابل :

كان البابليون ينسبون جميع الأمراض إلى تأثير شياطين أو أرواح شريرة يقع المريض فريسة لها إما نتيجة لأعمـــاله الشريرة ، وإما بتأثير بعض السحرة الذين يناصبونه العداء .

وقد كانوا يعتقدون أن هناك أرواحاً خبيثة من أنواع شتى تنتهز الفرص لإلحاق

الأذى بالناس ، وأن لكل مرض شيطاناً خاصاً ؛ كأن من الشياطين إخصائيين فى إحداث الأمراض ، كما أن من الأطباء إخصائيين فى معالجتها .

وكان الكهنة أو رجال الدين هم الذين يتولّون العلاج بالتسلط على تلك الأرواح وإبطال تأثيرها فى المرضى .

وكان على القسيس الماهر أن ينادى الروح المؤثرة باسمها ليتمكن من السيطرة عليها وإبطال نفوذها، والقضاء على تأثيرها فى المريض ، أو ليستطيع إبطال نفوذ الساحر الذى سلطها على المريض ، وبذلك يكون العلاج .

ومن أغرب ما كان يتّبع فى العلاج أن الساحر بعد أن يسيطر على الروح المؤثرة يحولها إلى مادة محسة ثم يقضى عليها ؛ كأن يحوّلها إلى إناء به ماء ثم يكسر الإناء أمام المريض فيراق مابه من ماء ، أو يحوّلها إلى تمثال من الخزف يربط بجسم المريض ثم يرفع عنه ، أو إلى جسم خنزير يوضع فوق جسم المريض ، ثم يرفع عنه ويقذف خارج البيت .

ومما كان يتّبع فى علاج عُقدة اللسان أو التواء الأمعاء أن يؤتى بحبل عقدت فيه عدة عقد ثم يحلها الساحر واحدة واحدة، وهو يتمتم تمتماته التى نعهدها فى المشعوذين.

وقد برع البابليون فى التنجيم، وكانت لهم فيه الأسبقية ، واعتقدوا أن لحركات الشمس والقمر والنجوم تأثيراً فى حياة بنى الإنسان ؛ ولذا كانوا فى ذلك أساتذة اليونانيين واضعى علم الفلك ، وأساتذة أطباء العقول الذين قالوا بوجود علاقة بين المرض العقلى وحركات الأفلاك ، وفى مقدمتهم باراسيلوس[1] (١٤٩٣ ـ ١٥٤١م) الذى قرر أن الطبيب الذى لا علم له بعلم الفلك لايستطيع أن يعرف أسباب الأمراض

---

(١) Paracelsus

ولا طرائق علاجها ، وأن الحياة كلها صدرت عن الكواكب ، وأن الشمس هى المسيطرة على الرأس ، والقمر هو المسيطر على المخ ، والمشترى هو المسيطر على الكبد ، وزحل هو المسيطر على الرئتين ، والمريخ هو المسيطر على الصفراء ، والزُّهَرَة هى المسيطرة على الظهر ، وأن للمغناطيس تأثيراً فى معالجة الأمراض .

وقد تأثر بهذه الآراء مِسْمَر Mesmer (١٧٨٠) من بعد ، بل إنها شاعت من قبل فى القرون المسيحية الأولى وفى أيام العرب ، ولا تزال لها آثار باقية فى عصرنا هـذا .

(٤) العلاج بالسحر فى بلاد الإغريق :

ويقرر علماء العصر أن الإغريق مدينون لقدماء المصريين والبابليين فى معرفة الطب وممارسته بطريقة السحر الذى ذاع أمره بين كثير من عامة الشعب الإغريقى . وكان على الساحر أن يسلك مسلكاً خاصاً فى حياته، ويقوم بأعمال معينة قبل ممارسته السحر وفى أثنائه ؛ كان عليه أن يغتسل فى أوقات معيّنة ، وأن يدهن جسمه بالزيت، وأن يتجنب تناول بعض الأطعمة وبخاصة السمك ، وأن يصوم فى بعض الأوقات ، وأن يلبس من الملابس الفضفاض الخشن الخالى من العقد والعرا والأزرة ، وأن يكون مؤمناً ثابت العقيدة ، وأن يؤدى عمله بإخلاص وأمانة ، وأن يختار الوقت المناسب لعمله . وكانوا يفضلون للأعمال السحرية الليل ، وغروب الشمس ، وقبيل شروقها ، وحينما يكون القمر هلالاً أو بدراً . وكان الساحر يحمل بعض أشياء تجمل لشخصيته شأناً ، وتسهل عليه الوصول إلى غرضه ؛ كأن يمسك بيده العصا السحرية، ويعلق على ملابسه مفاتيح وخيوطا مختلفة الألوان ، وقد يضرب بالطاسات ليؤثر بها تأثيراً موسيقياً .

وكانوا فى بعض الأحيان يعدون المرضى إعداداً روحانياً فى بيئة روحانية قبل معالجتهم، وكان هذا يتبع عادة فى معابد (أسْكِلبْيُوسْ)[١] وبخاصة فى معبده فى مدينة (إبيدوروس)[٢] التى كان المرضى يأوون إليها من كل جانب جماعات، متجشمين متاعب السفر من جهات نائية، وكانوا بمجرد وصولهم يقدمون القرابين الثمينة والهدايا القيّمة ويضعونها عند مدخل المعبد ، ثم يغتسلون بماء نافورة هنالك .

وبعد تأدية هـــذه المراسم كان يسمح لهم بدخول رواق المعبد ليناموا يوماً أو أكثر ، ويستمعوا إلى ما يلقى عليهم من مواعظ ونصائح بليغة . وبعد هـذا الإعداد الهام كان يسمح لهم بدخول المعبد نفسه ، وهناك يرون تمثال الإله (أسْكِلبْيوس) مصنوعاً من الذهب والعاج ، فيؤدون الصلوات ، ويتوسلون إليـه أن يشفيهم من أمراضهم ، وهناك أيضاً يشتركون فى أداء صلوات وأدعية عامة . وبعد أن يَصِلوا إلى درجة ملحوظة من التأثر والانتعاش الوجدانى يذهبون ليناموا على جلود الحيوانات التى ضحّوا بها ، أو على جلود أخرى تعد لهذا الغرض .

ويرى كل مريض فى نومه أن (أبولو) يعالج مرضه الخاص ، فإما أن يبرئه من مرضه ، وإما أن يطالبه بتقديم ضحايا أخرى .

وكان لإسكلبيوس معابد كثيرة فى عهد الإسكندر الأكبر ، وأخذ أهل رومية يعبدونه منذ سنة ٢٩٣ ق.م. وأقيم له معبد على شاطئ نهر التبر ، كما أقيمت له معابد فى أماكن كثيرة فى بلاد اليونان تشبه معبده فى مدينة إبيدوروس ؛ منها معبد أثينا ومعبد كوس .

وفى معبد كوس[٣] هذا نشأت فى سنة ٦٠٠ ق م مدرسة طبية هى التى سميت

---

(١) Asklepios (٢) Epidaurus (٣) Cos

فيما بعد مدرسة بقراط (٤٧٠ ـ ٣٧٠ ق م) ، وهى التى أصبح الطب بفضل جهود رجالها علماً من العلوم الطبيعية . ويروى التاريخ عن هـذه المدرسة أنها كانت أول مدرسة علمية أصدرت رسائل طبية كاملة؛ أشهرها رسالة عن المرض الربانى أى الصَّرْع، الذى كان يعتقد القدماء أنه من الله . وقد حمل كاتب الرسالة على هـذه العقيدة وقرر أن هذا المرض لا يمتاز من غيره بشىء؛ فله سبب طبيعى كغيره من الأمراض ، وإنما يعتقد النـاس أنه « ربانى » لأنهم لا يفهمونه ، ولو كانوا يصفون كل ما لا يفهمون بأنه « ربانى » ما كانت هناك نهاية للأشياء الربانية . وبهذا الأسلوب حاول الـكاتب القضاء على الخرافات التى كانت عالقة بأذهان الناس وإبعادها من عالم الطب، ومن ذلك الحين دخل الطب فى عداد العلوم التجريبية .

وحوالى سـنة ٣٨٠ ق م ظهر أمر أفلاطون وتحدث فى الجمهورية عن تفسير الأحلام ، ونصح بأن يعزل مرضى العقول ، وأن يعالجوا علاجاً خاصاً . ويؤخذ من من كلامه أنه أدرك تأثير الحالات النفسانية والانفعالات فى صحة الجسم . قال على لسان طبيب يقول لسقراط : « لا ينبغى أن تحاول علاج الجسم بدون معالجة النفس، وإذا أردت أن تحتفظ بسلامة رأسك وصحة جسمك فعليك أن تبدأ بعلاج عقلك، فهذا أول شىء . »

وإن أفلاطون ليوضح العلاقة بين شفاء الجسم وعلاج النفس حين يقول: « إنى أفهم أن أطباء الإغريق إذا استطاعوا علاج الجسم فإنما يفعلون ذلك بوساطة العقل ، وأن مهنة الطب تشمل تطهير الجسم والعقل معاً ، فإذا أُهمل أحدهما فقد عُرض الآخر للخطر ، فليس هناك ما يقوّى العقل غير الجسم السليم ، ولـكن النفس المنظمة تنظيماً تاماً هى التى تجعل الجسم فى صحة كاملة بما لها عليه من سلطان نافذ . »

ولم يكن للرومان شأن يذكر فى الطب عامة ، وفى العلاج النفسانى بوجه خاص؛

فقد شاعت لديهم الأفكار والعقائد الطبية التى شاعت فى العالم القديم ، أما هم أنفسهم فلم يعدوا العالم إلا بقليل جداً من المعلومات الطبية .

(ب) العلاج بالتدين والتطهر من الذنوب

لننتقل بعد ذلك إلى جو آخر من أجواء العالم القديم ، وبيئة أخرى من بيئاته ؛ أريد جو اليهود وبيئة الإسرائيليين فى العصور القديمة ؛ ذلك الجو الذى كان مشبعاً بالروح الدينية إلى حد كبير جداً ،وتلك البيئة التى فاضت بالأنبياء والحكماء والمبشرين والمنفرين .

كانت الأفكار والتقاليد العامة بين اليهود تختلف عما كانت عليه لدى اليونان والرومان ؛ فقد كانت معارفهم محدودة ، وكان ينقصهم ذلك الدافع النفسى القوى الذى دفع معاصريهم من اليونان إلى ممارسة البحث العلمى .

وكانوا يمتازون بطابع وراثى خاص بهم؛ ذلك هو: الشعور الدينى النفسانى القوى، الذى خير ما يقال عنه أنه جعلهم أقل ميلاً إلى الاعتقاد فى الخرافات والأساطير والسحر والشعوذة .

وكان الإله (يَهْوِه) إلههم الواحد القادر على كل شىء، الذى بيده الحياة والموت وبإرادته الصحة والمرض . ومع كونه بطبعه رءوفا لا يلحق الأذى بعباده ، فإنه فى الوقت نفسه كالأب الرحيم الذى يعاقب أولاده على عصيانهم ؛ فهو يضرب العاصى بالجنون والعمى وحيرة القلب[1] .

فالذنوب إذاً هى أسباب الأمراض ، وهذه مرتبطة بتلك ، كذلك كانت عقيدة

---

(١) سفر التثنية إصحاح ٢٨ — ٢٨

اليهود التى شاع أمرها فيما بينهم منذ نشأتهم الأولى ، وبقيت راسخة فى أذهانهم فى عصور الربانيين . يقول ربى يوناتان : « إن المرض يأتى من سبعة أبواب هى : (١) السب ، و (٢) سفك الدم ، و (٣) الحنث فى اليمين ، و (٤) عدم العفة أو الشره و (٥) الغرور ، و (٦) السرقة ، و (٧) الحسد .

ولما كان الإثم هو سبب المرض لم يكن هناك مبرر للشكوى؛ فلم يكن على المريض إلا أن يفكر فيما اقترف من آثام ، حتى إذا عرف إثمه تاب منه وعزم على عدم العودة إليه ، واعترف به أمام الإله (يَهْوِه) ، واستغفره وطلب منه الرضا ، فإذا وهب يهوه له المغفرة تم له الشفاء . وإذا نزل بالشعب وباء عام كان على الجميع أن يعترفوا بذنوبهم، ويطلبوا من الله المغفرة حتى يرتفع عنهم ما نزل بهم ؛ ذلك لأنهم اعتقدوا أن الوباء العام عقوبة للشعب جميعه على ارتكاب الآثام .

ولكن ربط الإصابة بالمرض بارتكاب الآثام أصبح فيما بعد موضع تساؤل ؛ فإننا نرى (ربى مِئِير) يقرر فى ضوء قصة أيوب أن ليست هناك صلة بين الأمرين ؛ فإن أيوب أصيب بمرض خطير، مع أنه كان تقياً صالحاً ، مبرأ من الذنوب والآثام ؛ لذا يعترف ربى ميئير بأن تعذيب الله لعباده بأنواع العقوبات المختلفة من الأسرار الخفية التى لا يدركها الإنسان .

كان اليهود حينئذ يعالجون أمراضهم بالتوبة والرجوع إلى الله ، وكان أشياخهم وأحبارهم ينهونهم عن الاعتقاد فى السحر والكهانة ، ومع ذلك فقد صاروا فيما بعد يعتقدون بوجود الشيطان وبوقوفه منهم موقف العداء . وكذلك بوجود الأرواح ، ولكنهم لم يكونوا يستعينون بهم فى علاج أمراضهم، ولم يكونوا يرجعون إلى السحرة والكهنة إلا فى استفتائهم عما يكنّ لهم المستقبل .

ثم شاع بينهم - إبان ظهور المسيحية - الاعتقاد بوجود الجن والشياطين ، وبأنهم

أسباب انتشار الأمراض بينهم جسمية كانت الأمراض أو عقلية . هذا على الرغم من أن التلمود يقرر أن الأمراض جميعها جثمانية كانت أو عقلية لا علاقة لها بمس الشيطان، أو ضربة الجان، وأنه من الممكن الشفاء منها بالعلاج الصحيح .

وعلى كل حال لم يُؤْثَر عن اليهود أنهم كانوا يعالجون مرضاهم بالسحر ، وكذلك ما فى حكمه، إذا استثنينا حالة واحدة، تلك أنهم يهمسون فى أذن المجروح آية من سفر الخروج[1] هى : « إذا أصغيت لكلام الرب إلهك ، وعملت ما هو حق فى نظره ، واستمعت إلى وصاياه ، وحافظت على جميع فرائضه فلن أرسل عليك أى مرض من الأمراض التى أرسلتها على المصريين ، فإنى أنا الرب الذى يبرئك . »

ولاريب أن الهمس فى أذن المريض بمثل هذا الكلام يريحه ويهدئ أعصابه، ويهيئه للاعتقاد فى الشفاء ، ثم للشفاء بالفعل ؛ على شريطة أن يكون الهامس قوى الشخصية، قادراً على أن يجعل المريض يعتقد ما يقول اعتقاداً جازماً .

وقد كانت وظيفة الأحبار ورجال الكهنوت من اليهود تتضمن ممارسة العلاج ، ومع هذا فقد كانت هناك طائفة خاصة تتولى مهنة الطب ، وكان هؤلاء الأطباء موضع تقدير من الشعب ، فقد كانوا يعتقدون أن الشفاء من الله ، ولكنه وهب للأطباء القدرة على العلاج ؛ ولذا كان المريض يؤمر أن يدعو الله لينقذه من مرضه ويستدعى الطبيب لعلاجه .

والمأثور عن أنبياء بنى إسرائيل أن الله (يَهْوِه) قد حباهم القدرة على شفاء المرضى . ومما يذكر أن أشعياء النبى أمر حزقيل الملك ، وكان يشكو ألم دمل ، أن يضع « لبخة » من التين فوق الدمل ، وأن اليسع أمر نعمان أن يستحم فى نهر

---

(١) سفر الخروج ص ١٥ — ٢٠

الأُردُنّ سبع مرات ليشفى من المرض . والمعروف أن ماء هـذا النهر ليس له مزايا طبيـة .

وقد عنى اليهود أكبر عناية بقطع دابر الأمراض حتى لايصابوا بها مرة أخرى ؛ ولذا كانوا إذا أصيب أحدهم بمرض يبحثون عن سببه، ويتعرفون الإثم الذى ارتكبه المريض كيلا يرتكبوه مرة أخرى .

وخلاصة القول أن طبهم كان طبًا وقائيًا قبل كل شىء ، وأن طريقتهم التى عالجوا بها مرضاهم كانت الحياة الطاهرة الخالية من الآثام .

(ح) شرح وتعليق

ويعد فهذا عرض موجز للعلاج النفسانى قبل ظهور السيد المسيح عليه السلام ، ومنه نرى أن الأمراض العقلية وغيرها كانت تعالج بإحدى طريقتين هما :

(١) طريقة السحر على اختلاف صوره .

(٢) طريقة التدين والتطهر من الآثام .

وقد أشرنا فيما مضى إشارة عابرة إلى السبب فى نجاح السحر باعتباره وسيلة طبية. ولما لهذا الموضوع من أهمية خاصة نزيده لك بياناً وتفصيلاً فنقول : قد برهن علم النفس الحديث بالتجارب المختلفة على ما للاستهواء والمشاركة الوجدانية من آثار عظيمة فعالة فى النفس ، بل إنه قد بيّن أن قبول الإيحاء والميل إلى المشاركة الوجدانية من النزعات الفطرية العامة التى جبلت عليها الطبيعة البشرية فى كل زمان ومكان ، كما تبيّن أن تأثير الاستهواء لايتم على الوجه الأكمل إلا إذا توافرت شروط خاصة من أهمها :

(١) قوة إرادة المستهوِى .

(٢) لباقته ومهارته فى حسن العرض .

(٣) قابلية المستهوَى وحسن استعداده لما يوحى إليه .

(٤) ملاءمة الظروف الخارجية لنجاح التأثير .

فإذا ذكرنا ذلك ظهر لنا السر فيما أصاب السحر والسحرة من نجاح ، وعلمنا أن ذلك يرجع بوجه خاص إلى أمرين :

الأول : ثقة الساحر من نفسه إلى حد بعيد جداً ، ومن مقدرته على أداء وظيفته ، بعد أن يستعد لها استعدادا كاملا .

والثانى : اعتقاد المريض فى كفاية الساحر من جهة ، وفى أن عمله منتج محقق للغرض من جهة أخرى . فلو كان المريض مزعزع الإيمان بالساحر ، ضعيف الاعتقاد فى كفايته ، أو كان ضعيف الأمل فى الشفاء لضعف تأثير السحر أو انعدم .

وإننا إذا درسنا صور السحر المختلفة وحاولنا تحليلها علمياً وجدنا أن السحر فى معظم صوره يؤول إلى التأثير بالاستهواء من جانب الطبيب ، والإيمان وصدق الاعتقاد من جانب المريض . أما فيما عدا هذه الصور فإن التأثير يرجع إلى التذرع بوسائل تقوم على التجربة .

ولقد يروق القارئ المعتز بشرقيته أن يعرف أن علماء العرب وفلاسفتهم قد تكلموا فى السحر وتأثيره كلاماً وافياً شافياً ، يدل على ذلك مانقلته باختصار عن الراغب الأصفهانى وابن خلدون .

غير أنى أرى أن أوفاهم حديثاً وأشدهم تفصيلا وتحقيقاً فى دراسة هذا الموضوع هو العلامة محمد فخر الدين الرازى صاحب التفسير المشهور[1] .

يُقرِّر هذا البحاثة الماهر أن السحر فى عرف الشرع مختص بكل أمر يخفى سببه ،

---

(١) ولد فى ٢٥ رمضان سنة ٥٤٣ هـ وتوفى فى يوم الاثنين عيد الفطر سنة ٦٠٦ هـ .

ويتخيل على غير حقيقته ويجرى مجرى التمويه والخداع .

ويرى أن للسحر بهذا المعنى ثمانى صور[1] أعرضها هنا على سبيل الإيجاز واحدة واحدة ؛ لأبين مبلغ انطباق القاعدة السابقة عليها :

الصورة الأولى : « سحر الكلدانيين الذين عبدوا الكواكب » :

كان هؤلاء يعتقدون اعتقاداً جازماً فى تأثير الكواكب والأجرام العلوية عامة فى العوالم السفلية عامة، وفى الإنسان بوجه خاص. ولعل هذه العقيدة أتت لهم من مشاهدة تأثير هذه الأجرام وما لها من فوائد ومضار ، وما لدورانها وتقلبات أحوالها من أثر فى اختلاف المواسم وتغير درجة الحرارة ، وفى معرفة عدد السنين وحساب الزمن .

اعتقد السحرة كما اعتقد المرضى بقوة تأثير هذه الكواكب، فإذا ما استعانوا بها فى معالجة الأمراض وكان نصيبهم النجاح فليس لنا أن نعجب ، ما دمنا نعلم أن كلا من الساحر والمريض يؤمن إيماناً صادقاً أن هذه الكواكب تجيب دعوة الساحر إذا دعاها . أما أن هذه العقيدة مطابقة للواقع أولا فأمر ثانوى لا علاقة له بالحالة النفسية عند كل من الساحر والمريض ؛ فالعقيدة أمر نفسى ذاتى ، وما عليه الواقع أمر خارجى موضوعى ، وليس من الضرورى فى حالتنا هذه مطابقة كل من الأمرين للآخر . ألا ترى أن الوهم بجميع صوره يؤثر فى النفس إلى حد كبير جداً على الرغم من أن المتوهَّم غير مطابق للواقع ؟ وألا ترى أن الاستهواء يعمل عمله فى نفسى المستهوَى - ولو كانت الفكرة الموحى بها خيالية بحتة لا نصيب لها من الحق ؟

ولو فرضنا فى هذه الحالة أن الساحر مدع مخادع وأن المريض انخدع بكلامه، واعتقد ما يقول لم يتغير الموقف؛ لأن العنصر الفعال فى الشفاء هو حال المريض النفسية؛

---

(١) راجع الجزء الأول من تفسيره المسمى مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير عند تفسير قوله تعالى : « واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان » الآية . ج ١ ص ٤٢٩ وما بعدها .

فمتى اتجهت نيته إلى الشفاء ، وامتلأت نفسه تفكيراً فى الصحة ، وبعدت عنه جميع الأفكار الموقتة فى المرض، بأى وسيلة من الوسائل، ولو بطريق الإيهام والخداع - كان أقرب إلى الشفاء .

الصورة الثانية : «سحر أصحاب النفوس القوية، المستعلية على البدن القادرة على التصرف فى العناصر الكونية بعد الرياضة المستمرة، والانقطاع عن المألوف من الملذات، والبعد عن مخالطة الخلق » :

وهذه الصورة تختلف عن سابقتها فى أن الساحر هنا يعتمد على نفسه وقوة إرادته، ويقوم بعمله دون الاستعانة بقوى خارجية ، فهو أقرب ما يكون للمسهوى أو للمنوم المغناطيسى الذى يستخدم قوة إرادته فى التأثير على الوسيط ، وليس هناك شك فى أن هذه الطريقة قد جربت ونجحت فى كثير من الحالات فى علاج المرضى .

والسر فى نجاحها هو العامل نفسه وهو الاعتقاد فى الشفاء ، فالمريض لا يبرأ إلا إذا ثبت فى نفسه أنه سائر فى طريق الصحة ، وإنما يأتى له هذا الاعتقاد من تأثير من يتولى العلاج؛ بما له من قوة إرادة ونفوذ فعال، وتسلط على إرادة المريض، وتوجيهها حيث يشاء .

أما تأثير ذوى النفوس المستعلية فى العناصر الكونية بعد الرياضة والاستعداد فقد أقره الفلاسفة الإشراقيون معتنقو الفلسفة الأفلاطونية الحديثة . وقد نص عليه ابن سينا فى كتابه الشفاء حيث قال[1] :

« وكثيراً ما يؤثر النفس فى بدنٍ آخر كما يؤثر فى بدن نفسه تأثير العين العائنة والوهم العامل ، بل النفس إذا كانت قوية شريفة شبيهة بالمبادئ (العليا) أطاعها العنصر الذى فى العالم وانفعل عنها ، ووجد فى العنصر ما يُتَصَوَّر فيها ؛ ذلك لأن

(١) راجع كتاب الشفاء لابن سينا ج ١ ص ٣٤٥ .

النفس الإنسانية غير منطبعة فى المادة التى لها، لكنها منصرفة الهمة إليها ؛ فإن هذا الضرب من التعلق يجعل لها أن تحيل العنصر المبدئى عن مقتضى طبيعته ، فلا بد أن تكون النفس الشريفة القوية جداً تجاوز بتأثيرها ما يختص بها من الأبدان ، إذا لم يكن انغماسها فى الميل إلى ذلك البدن شديداً، وكان (أى النفس) مع ذلك عالياً فى طبقته قوياً فى مملكته جداً فتكون هذه النفس تبرىء المرضى وتمرض الأشرار ، ويتبعها أن أن يُهدم طبائع وأن يؤكد طبائع ، وأن يستحيل لها العناصر؛ فيصير غير النار ناراً، وغير الأرض أرضاً ، وتحدث أيضاً بإرادته (أى النفس) أمطار وخصب، كما يحدث خسف ووباء ، وذلك كله بحسب الواجب العقلى.»

« وبالجملة فإنه يجوز أن يتبع إرادته (أى إرادة النفس) وجود ما يتعلق باستحالة إلى الأضداد فإن العنصر يطيعه (أى يطيع النفس) ويتكون فيه (أى فى العنصر) ما يتمثل فى إرادته (أى إرادة النفس[1]) . »

لله درك أيها الفيلسوف العظيم ! فقد وفيت الموضوع حقه ، ولم تدع فيه قولا لقائل بعد هذا الكلام الصريح الواضح ، الذى يمكن أن نستنبط منه بسهولة :

(١) تأثير الوهم والعقيدة فى الصحة والمرض فهذا هو المقصود بتأثير النفس فى بدن نفسه .

(٢) تأثير النفس الشريفة القوية فى الأبدان الأخرى .

(٣) تأثير هذه النفس فى هدم الطبائع أو تأكيدها واستحالة العناصر المبدئية.

---

(١) يستعمل ابن سينا النفس مذكراً ومؤنثا فى هذا النص كما يظهر من الضمائر الراجعة إليها ، ويريد بالمبادىء العليا المبدع الأول والعقل الأول ، وغيره من العقول ، والنفس الكلية ، ويريد بالعنصر المبدئى أى عنصر من العناصر الأربعة المعروفة التى هى الماء والهواء والنار والتراب أو الأرض .

(٤) رجع هذا التأثير إلى مشابهة النفس البشرية للمبادىء العليا التى تؤثر فى العالم السفلى .

(٥) أن وصول النفس إلى هـذه المرتبة مشروط باستعلائها على البدن وعلوها فى طبقتها .

وهناك نص آخر من كلام الإمام الغزالى فى الموضوع نفسه :

يقول رحمه الله[١] :

«وقد يتعدى أثر بعض النفوس (البشرية) إلى بدن آخر، حتى يفسد الروح بالتوهم، ويقتل الإنسان بالتوهم . ويعبر عن ذلك بأنه إصابة العين ؛ ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: « إن العين لتدخل الرجل القبر، والجمل القدر. » وقال عليه الصلاة والسلام: « العين حق » .

« وإذا كان ممكناً لم يبعد أن تقوى نفس من النفوس على الندور قوة أكثر من هذا، فيؤثر فى هيولى العالم، بإحداث حرارة وبرودة وحركة. وجميع تغاير العالم السفلى يتشعب عن الحرارة والبرودة والحركة ... ومثل هذا يعبر عنه بالكرامة والمعجزة . »

هـــذه خلاصة رأى الفلاسفة الأقدمين فى تأثير النفوس البشرية فى عناصر الكون ، وأكاد أوقن أن العلم الحديث لم يصل بعد إلى إثبات هـذا التأثير بالدليل العلمى التجريبى ، ولكنه مع ذلك لا يقف منه موقف المنكر ؛ فالعلم الحديث رحب الصدر لا يسرع إلى إنكار شىء ، ولكنه أيضاً لا يسارع إلى قبول نظرية من النظريات إلا إذا أيدها البحث، وعاضدتها التجارب، وانسجمت مع نظام الكون العام. وكم من أمور كانت تعد سحرية أو معجزة ثم كشف العلم عنها اللثام، فأصبحت من

---

(١) مقاصد الفلاسفة ص ٣١٦ ـ ٣١٧

البديهيات المسلمات ، وما عهد المذياع وناقل الصور (التليفيزون) والقنبلة الذرية منا ببعيد .

الصورة الثالثة : « الاستعانة بالأرواح الأرضية (الجن والشياطين) فى التأثير »، وشأن هذه الصورة شأن الصورة الأولى؛ إذ أن الاستعانة بالأرواح الأرضية كالاستعانة بالكواكب والأجرام العلوية، فما قيل فى هذه يقال هنا سواء بسواء . وقد علمت أن الكلدانيين أو البابليين كانوا يتبعون الطريقتين معاً فى معالجة المرضى .

الصورة الرابعة : « التخييلات والأخذ بالعيون بخفة الحركة وخداع الحواس» . وهذا هو الذى يسمى أحياناً «الشعوذة أوالشعبذة» وأساسه النفسى كما ترى هو الوهم وخداع الحواس ، الذى أثبتته التجارب السيكولوجية، وأقره الباحثون قديماً وحديثاً . ومرده إلى أن الحاسة قد تنخدع فتحس إحساساً مخالفا للواقع ، وقد يصل الإنسان إلى درجة الخبل فيصور له خياله أشياء لاوجود لها مطلقا ، ويقوم نحوها بأعمال تدل على مافى نفسه من تخيلات وأوهام، فيحاول الجلوس على الكرسى المتوهم ، أو يحاول معانقة الحبيب الخيالى ، وهذا كله مفصل فى كتب علم النفس فلا داعى للإطالة فى بحثه هنا .

« الصورة الخامسة : « الإتيان بالأعمال العجيبة التى تظهر من الآلات المركبة على النسب الهندسية ؛ كعمل تمثالين لفارسين يتحركان ويقتتلان ، ولا يقتل أحدهما الآخر ، وكفارس على فرس فى يده بوق كلما مضت ساعة من النهار ضرب البوق من غير أن يمسه أحد . »

الصورة السادسة : « الاستعانة بخواص الأدوية ؛ كأن يجعل فى طعامه بعض الأدوية المبلدة المسكرة ؛ نحو دماغ الحمار ؛ إذا تناوله الإنسان بلد عقله . »

وهاتان صورتان كان يعدهما القدماء من الأعمال السحرية التى لا تعرف أسرارها،

ولكن التقدم العلمى الحديث قد جعلها فى عداد البديهيات . ولا ريب أن من قاموا بهذه الأعمال فى العصور التاريخية قد علمتهم التجارب بعض الخواص الطبيعية ، فاستخدموا معارفهم البدائية هذه فى تركيب الأدوية الخاصة، وعمل تلك الآلات المتحركة التى نجد أنواعا كثيرة منها ، ومما هو أرق منها بين لعب الأطفال فى الوقت الحاضر.

فليت شعرى ماذا يظن الإمام الرازى وغيره من الأقدمين لو أن حياتهم ردت إليهم ، وعادوا إلى هذه الدنيا، ورأوا ما فيها الآن مما يبهر العقول ، ويحير الألباب ؟

الصورة السابعة : «تعليق القلب؛ وهو أن يدعى الساحر أنه يعرف الاسم الأعظم، وأن الجن يطيعونه وينقادون له فى أكثر الأمور ، فإذا اتفق أن كان السامع لذلك ضعيف العقل قليل التمييز، اعتقد أنه حق وتعلق قلبه بذلك ، وحصل فى نفسه نوع من الرعب والمخافة . وإذا حصل الخوف ضعفت القوى الحساسة ، فحينئذ يتمكن الساحر أن يفعل ما يشاء . »

وهذا هو الإيحاء عينه ، أو الاستهواء نفسه المستوفى لشرطيه الأساسين وهما :

(١) قوة إرادة المستهوِى واستعلاؤه على المستهوَى بتلك الادعاءات والتمويهات .

(٢) ضعف إرادة المستهوَى، ووقوعها فريسة فى يد المستهوِى يفعل بها ما يشاء .

فإذا استخدمت هذه الطريقة فى العلاج ونجحت فليس لنا أن نعجب؛ لأن الأمر بين والسبب ظاهر .

الصورة الثامنة : « السعى بالنميمة والتضريب[1] من وجوه خفيفة لطيفة . »

وهذه الصورة لا تعدو أن تكون إيحاء أيضاً ؛ فإن النمام يستعين بقوة بيانه ، وسلطان بلاغته على تزيين الأفكار وتنميتها، ويقذف بها فى قلب المنموم إليه، فيتقبلها بقبول حسن، دون أن يطالب النمام بإقامة الدليل العقلى على صحة ما يقول . فالنميمة

(١) التضريب = التحريض .

المؤثرة هى فى الواقع استهواء سلاحه البلاغة والبيان . وقد صدق الرسول حيث قال: « إن من البيان لسحراً . »

ومن الطرق المتبعة الآن فى العلاج النفسانى طريقة تسمى طريقة «تجديد التربية» Re Education ، ومن أهم عناصرها تزويد المريض بالأفكار الصحيحة، والتخفيف من شأن مرضه ومن شأن أسبابه بعبارة بليغة مؤثرة . فما أشبه هذه بالصورة الثامنة والأخيرة من صور السحر، التى ذكرها محمد فخر الدين الرازى رحمه الله .

وخلاصة القول أن تأثير السحر فى علاج الأمراض يرجع فى النهاية إلى تأثير الاعتقاد والإيمان فى نفس المريض .

ولننتقل الآن إلى الطريقة الثانية ، وهى طريقة المعالجة بالتدين والتطهر من الآثام، وهى الطريقة التى شاع أمرها بين اليهود .

وإنى أقول وأنا واثق مما أقول إن هذه الطريقة أيضاً تقوم على أساس الاعتقاد والإيمان ، ذلك أن اليهودى المتدين المؤمن بصحة تعاليم دينه إذا ارتكب إثماً من الآثام ، وهو يعلم حق العلم أن ارتكاب الإثم يجعل الإنسان عرضة للمرض ، فإنه لابد يتأثر بهذه العقيدة، فيمرض أو يسير فى طريقه إلى المرض ، فمرضه يكون حينئذ ناشئاً عن اعتقاده الجازم بأن ارتكاب الإثم يورث المرض .

وإذا لحقه المرض وعرف سببه، ثم اعترف بإثمه وتاب من ذنبه واستغفر ربه، واعتقد أن ربه قد غفر له كان ذلك الاعتقاد أيضاً سبباً مباشراً فى شفائه من مرضه؛ لأن دينه يرشده إلى أن التوبة أو الاستغفار يكسب الصحة ، ويذهب بالأمراض .

فالاعتقاد بأن الذنب يورث المرض هو الذى ينشأ عنه المرض أو الوباء ، وكذلك الاعتقاد بأن التوبة تأتى بالصحة هو الذى ينشأ عنه الصحة والشفاء ، فالأمر يرجع إلى الاعتقاد فى كلتا الحالين . ولا ريب أن هذا وذاك متوقفان على صحة إيمان الشخص، ووثوقه ثقة لا تتزعزع بأن تعاليم دينه صحيحة صادقة لا يتطرق إليها أدنى شك، وإلا لم يكن من الضرورى ترتب المرض على الإثم ، ولا ترتب الصحة على التوبة .

الفصل الثاني

العلاج النفساني في القرون المسيحية الأولى

(١) علاج المرضى على يد السيد المسيح

نشأ السيد المسيح عيسى بن مريم بين اليهود ، وشب وترعرع في بيئة يهودية ، ونظر حوله فوجد قومه قد ضلوا السبيل ، وأهملوا تعاليم الدين القويم الذي أتى به موسى عليه السلام ، فهب بتأييد من ربه يرشدهم إلى الحق ، ويدعوهم إلى الخير ، ويدافع عن الفقراء والمساكين . فآمن به فريق منهم ، وفي مقدمتهم الحواريون المخلصون . وتقص علينا الأناجيل بطرق وأساليب فيها شيء من الاختلاف أنه عالج المرضى بحنو ورفق، وأعاد إليهم صحتهم الجسمية والعقلية معاً . ويذكر القرآن الكريم أنه عليه السلام أبرأ الأكمه والأبرص وأحيا الموتى بإذن الله، معجزة له، ودليلا على صحة رسالته من لدن ربه .

وقد علمت فيما مضى موقف الفلسفة من هذه الأعمال الغريبة الخارقة للعادة ، وفهمت أن النفوس القوية الشريفة تقرب من العالم الروحاني ، ويكون لها من التأثير ما يشبه المبادئ العليا .

وقوة النفس وشرفها وعلو منزلتها كل ذلك كان متوافراً في عيسى بن مريم على أكمل وجه، وقد كان عليه السلام واثقاً بنفسه، موقناً بتأييد ربه ؛ وحينئذ يكون هو

فى نفسه أهلا لتولى العلاج النفسانى؛ لقوة نفسه وشرفها وثقته بها ، وبمقدرته على إجابة دعوة من يستغيثون به ، ويرجون معونته على التخلص من أمراضهم .

وإننا إذا درسنا الحالات التى عرضت له أو عرضت عليه وحللنا نفسية من استغاث به وجدنا أن شرط الإيمان والاعتقاد فيه والثقة به متوفر فى كل منهم .

وإليك ما ورد فى إنجيل مرقس خاصاً بشفاء المرضى على يديه عليه السلام :

قال مرقس : «ثم دخلوا كفر ناحوم ، وللوقت دخل المجمع[1] فى السبت، وصار يعلم فبهتوا من تعليمه ؛ لأنه كان يعلمهم كمن له سلطان وليس كالكتبة ، وكان فى مجمعهم رجل به روح نجس فصرخ[2] قائلا : آه ! ما لنا ولك يا يسوع الناصرى ، أتيت لتهلكنا، أنا أعرفك من أنت، أنت قدوس الرب. فانتهره يسوع قائلا: اخرس[3] واخرج منه، فصرع الروح النجس ، وصاح بصوت عظيم وخرج منه . . . . ولما خرجوا من المجمع جاءوا للوقت إلى بيت سمعان ، وأندراوس مع يعقوب ويوحنا وكانت حمو سمعان مضطجعة محمومة، فللوقت أخبروا عنها ، فتقدم وأقامها ممسكا بيدها ، فتركتها الحمى حالا وصارت تخدمهم . ولما صار المساء إذ غربت الشمس قدموا إليه جميع السقماء والمجانين ، وكانت المدينة كلها مجتمعة على الباب فشفى كثيرين كانوا مرضى بأمراض مختلفة وأخرج شياطين كثيرة ، ولم يدع الشياطين يتكلمون لأنهم عرفوه[4] . »

---

(١) المجمع كنيسة اليهود .

(٢) المفهوم أن الذى صرخ هو الروح النجس الذى احتل جسم الرجل وذلك طبقاً للعقيدة التى كانت منتشرة بين اليهود فى ذلك الوقت .

(٣) الخطاب موجه للروح النجس كما لا يخفى .

(٤) انجيل مرقس ص ١ (٢٣ ـ ٢٨)

ويروى لوقا هذا الحادث نفسه مع شيء قليل من التغيير ، ولأمر ما لم يذكرها متى ولا يوحنا فى إنجيليهما .

ومهما يكن من اختلاف أصحاب الأناجيل فى رواية هذا الحادث فإنه يدل على مبلغ اعتقاد القوم فى قوة السيد المسيح وسلطانه على العقول ، ومقدرته على العلاج الروحانى .

وإليك حادثين آخرين يؤيدان ما قلناه :

(١) يقول متى: «وفيما هو يكلمهم بهذا إذا برئيس قد جاء فسجد له قائلا : إن ابنتى الآن قد ماتت ، لكن تعال وضع يدك عليها لتحيا ، فقام يسوع وتبعه هو وتلاميذه، وإذا امرأة نازفة دم منذ اثنتى عشرة سنة قد جاءت من ورائه ومست هدب ثوبه ؛ لأنها قالت فى نفسها إن مسست ثوبه فقط شفيت . فالتفت يسوع وأبصرها فقال : ثقى يا ابنة؛ إيمانك قد شفاك ، فشفيت المرأة من تلك الساعة . . »[١]

(٢) يقول متى أيضاً : « وفيما يسوع مجتاز من هناك تبعه أعميان يصرخان ويقولان: ارحمنا يا ابن داود ! ولما جاء إلى البيت تقدم إليه الأعميان فقال لهما يسوع : أتؤمنان أنى أقدر أن أفعل ذلك ؟ . قالا له : نعم يا سيد . حينئذ لمس أعينهما قائلا : بحسب إيمانكما ليكن لكما » فانفتحت أعينهما . »[٢]

وإنك لو تتبعت جميع حالات العلاج التى وردت فى الأناجيل لوجدت أنها كلها ناطقة بصدق ما أقول ، على الرغم من اختلاف أصحاب الأناجيل فى وصف حالات العلاج ، وما أحاط بها من ظروف .

وإذن يكون علاج السيد المسيح لهؤلاء المرضى علاجاً نفسانياً ، مستوفياً لشرطيه

---

(١) إنجيل متى ٩ (١٨ وما بعدها)

(٢) إنجيل متى ٩ (١٧ وما بعدها)

الأساسيين، سواء أكان المرض عقلياً كما فى الحالة الأولى: حالة المصروع ، أو جثمانيا كما فى الحالتين الأخيرتين: حالة المرأة التى لازمها نزيف الدم ، وحالة الأعميين .

رب قائل يقول : إذا كان علاج السيد المسيح للمرضى عاديا، متمشياً مع طبائع الأشياء فأين معجزته ؟ فأقول : إن المعجزة هى الأمر الخارق للعادة يظهره الله على يد مدعى الرسالة دليلا على صحة دعواه ، وإن هذا التعريف ينطبق على أعمال السيد المسيح؛ فقد جرى على يديه أمور غير مألوفة ، أوقعت القوم فى حيرة وارتباك ، وإن صدور هذه الأعمال منه دليل على قوة نفسه وشرفها ، وما هذا وذاك إلا منحة إلهية وموهبة صمدانية لا يهبها الله إلا لعباده المخلصين .

ولا إخال القارىء الكريم إلا متفقاً معى على أن شفاء المرضى بالطريقة التى اتبعها السيد المسيح عليه السلام متمش مع المبادىء الفلسفية، جار على أصول علم النفس ، مستوف للشرطين الأساسيين : إيمان المريض ، وقوة نفس المعالج .

(ب) علاج المرضى على يد القديسين المسيحيين

لم يلحق السيد المسيح بالرفيق الأعلى إلا بعد أن ناشد الحواريين أتباعه المقربين إليه أن ينشروا رسالته ، ويذيعوا فى الناس تعاليمه ، ويعالجوا مرضاهم .

يقول لوقا فى هذا الموضوع :

« وقد دعا تلاميذه الاثنى عشر وأعطاهم قوة وسلطانا على جميع الشياطين، وشفاء الأمراض . وأرسلهم ليكرزوا بملكوت السموات ويشفوا المرضى . »[1]

وسواء أكان المراد من «الشياطين» المارقين عن الحق، ومن «المرضى» ضعاف النفوس

---

(١) لوقا ٩ (١٢)

المنغمسين فى الرذيلة ، أم كان المراد من «الشياطين» الجن أو الأرواح الخبيثة التى كان من المعتقد فى ذلك الوقت أنها تسكن أجسام الناس ، وتسبب لهم الصرع أو الجنون ، ومن «المرضى» المصابين بالأمراض الحقيقية الجثمانية أو العقلية . أقول سواء أكان المراد من كلام المسيح معناه المجازى أو معناه الحقيقى ، فقد روى أن بعض هؤلاء الرسل على الأقل قد اقتفوا أثر زعيمهم فى الدعوة إلى ملكوت السموات ، وعلاج مرضى الأجسام أو العقول بالطريقة الروحانية نفسها .

فقد روى فى سفر أعمال الرسل أن بطرس عالج رجلا أعرج بأن نظر إليه وقال له: «باسم يسوع المسيح الناصرى قم وامش» . وأمسكه بيده اليمنى وأقامه ، ففى الحال تشددت رجلاه وكعباه فوثب ووقف وصار يمشى[1] .

وورد فى السفر نفسه أن : « بطرس وهو يجتاز الجميع نزل أيضاً إلى القديسين الساكنين فى لُدَّة فوجد هناك إنساناً اسمه إيناس مضطجعاً على سرير منذ ثمانى سنين، وكان مفلوجا (= مصاباً بالشلل) فقال له بطرس : يا إيناس يشفيك يسوع المسيح قم وافرش لنفسك . » فقام للوقت ، ورآه جميع الساكنين فى لُدَّة .

ويروى كاتب السفر السابق ذكره أن حنانيا أحد تلاميذ المسيح مضى إلى بيت فيه رجل أصيب بالعمى اسمه «شارل» ووضع عليه يده، وتحدث معه، فللوقت وقع من عينيه شىء كأنه قشور فأبصر فى الحال . »[3]

ولم تكن القدرة على العلاج الروحانى مقصورة على الحواريين؛ فقد روى أن

---

(١) أعمال الرس ٣ (١ وما بعدها)

(٢) أعمال الرس ٩ (٣٣ ، ٣٤)

(٣) أعمال الرس ٩ (١ ـ ١٩)

القديس مارتين الطوروسى الذى عاش فى أواخر القرن الرابع الميلادى عالج صبيتين كانت إحداهما مفلوجة ، وكانت الأخرى خرساء ، وذلك بأن صب الزيت فى فيهما .

ويسمى علاج هؤلاء العلاج بالكرامة . أما علاج السيد المسيح فيسمى العلاج بالمعجزة ، وأما العلاج النفسانى فى العصور القديمة فقد كان فى الغالب علاجاً بالسحر. وقد شاع أمر العلاج بالكرامة خلال القرون الوسطى ، بل إن سوقه ظلت نافقة إلى عصرنا هـذا بين أرباب الديانات المختلفة ، وكانت طريقة العلاج ولا تزال واحدة تقوم على أساس الإيمان والعقيدة ، لا يختلف بعضها عن بعض إلا فى إسم الإله الذى يستعان به .

ويرى الدكتور چانيه Pierre Janet أن طريقة العلاج بالكرامة كانت تتبع بشكل يلفت الأنظار عند مقبرة القديس ميدارد[1] بفرنسا حوالى سنة ١٧٣٦ م .

ويحكى الأستاذ بيرسفال لاَوُل[2] فى كتاب نشره سنة ١٨٩٤م أن اليابانيين كانوا يتبعون فى علاج الأمراض طرائق تشبه كثيراً ما كان متبعاً بين قدماء المصريين والإغريق .

وقد حظى رجال الدين من المسيحيين بقسط وافر من النفوذ والسلطان وأثرت عنهم القدرة على علاج المرضى، وقد مارسوا فى كثير من الحالات مهنة تطبيب العقول، وعادت بعض العقائد القديمة إلى السواد الأعظم من الناس ، وأخذ المرضى بعقولهم يلجئون إلى رجال الدين، ويتوسلون إليهم أن يخرجوا الأرواح الخبيثة من أجسامهم لتعود إليهم صحتهم العقلية .

---

(١) St Médard

(٢) Pircival Lowell

وكان رجال الدين أنفسهم يشاطرون العامة هذه العقيدة ، أو على الأقل يتظاهرون بأنهم يشاطرونهم إياها .

وكلما قوى النفوذ الدينى فى القرون الوسطى اشتد رجال الدين تعسفا فى معالجة مرضى العقول . يقول الدكتور لُدج پاتش[1] فى كتابه عن الأمراض العقلية : « إن آلافا مؤلفة من مرضى العقول الذين عرفوا بالوداعة ودماثة الخلق كانوا فى عصر الاضطهاد الدينى فى أوربة يُحرقون وهم أحياء ، ومن سمح لهم بالبقاء من هؤلاء البائسين كانوا يعذبون عذاباً أليما ، ويمثل بهم تمثيلا شنيعا ، الحرق بالنار أسهل منه وأخف .

---

(١) A Manual of Mental Diseases, by Lodge Patch Page 2.

الفصل الثالث

العلاج النفسانى

فى جاهلية العرب وصدر الاسلام

---

(١) فى الجاهلية :

كانت جزيرة العرب قبل الإسلام تحتل مركزاً وسطا بين إمبراطوريتين عظيمتين هما : (١) الإمبراطورية الرومانية، وقد أحاطت بالجزيرة من الشمال والغرب؛ إذ كان الرومان يحتلون سوريا وفلسطين ومصر ، (٢) الإمبراطورية الفارسية، وقد أحاطت بجزيرة العرب من الشمال والشرق والجنوب؛ فقد كان الفرس يحتلون بلاد اليمن .

ولا مجال للشك فى أن دراسة الطب وممارسته قد شاعا فى هاتين الإمبراطوريتين؛ فالإمبراطورية الرومانية الشرقية ورثت ثقافة الإغريق القدماء ، وكياستهم الفنية ، ومهارتهم الطبية . ويذكر التاريخ أن الإمبراطور جستنيان ثار على الفلسفة والفلاسفة، ونفى فريقا منهم ممن اصطنعوا الذهب الأفلاطونى الحديث ، وكان ذلك فى القرن السادس الميلادى . ويروى أن عدداً من هؤلاء رحلوا إلى بلاد فارس فرحب بهم كسرى فنشروا ببلاده الفلسفة والطب، وأقاموا البيمارستانات ، ومن المحقق أن مهنة الطب كانت قبل ذلك من المهن المعتد بها فى بلاد فارس وفى الهند وغيرهما من الممالك الشرقية .

كان من الطبيعى إذاً أن يكون لدى العرب قبل الإسلام أطباء يمارسون الطب ويدرسونه ، وبخاصة فى الحيرة واليمن وسوريا المتاخمة لتلك البلاد العريقة فى الحضارة.

والواقع يؤيد ذلك ؛ فقد اتفق الرواة على أنه كان ببلاد العرب قبل الإسلام أطباء[1] نبغوا فى مزاولة الطب ، وفى مقدمتهم الحرث بن كلدة الذى وفد على كسرى أنو شروان وأجاب إجابات سديدة عن أسئلة فى الطب وغيره وجهها إليه كسرى، فأقر بفضله وذلاقة لسانه ، ومهارته الطبية .

ومنهم ابن حذيم من تيم الرباب وقد مهر فى التطبيب بالكى ، وقيل إنه أطب من الحرث بن كلدة ، وكان يضرب به المثل فى الطب فيقال أطب من حذيم ، وأطب فى الكىّ من ابن حذيم .

ومن أطباء العرب من كان معاصراً للرسول كالنضر بن الحرث بن كلدة الثقفى الآنف الذكر وكان ابن خالة النبى ، وقد ذكر عنه أنه سافر وتنقل فى البلاد كأبيه ، واجتمع مع الأفاضل والعلماء بمكة وغيرهما، وعاشر الأحبار والكهنة ، وحصل من العلوم القديمة أشياء جليلة القدر ، وأنه كان كثير الأذى والحسد للنبى مع أنه ابن خالته . ولما كان يوم بدر ناصر النضر المشركين، وكان ممن أسرهم المسلمون فأمر الرسول بقتله .

ومن المقطوع به أن هؤلاء الأطباء وغيرهم قد زاولوا علاج الأمراض الجثمانية بوسائل مادية ، ونجحوا فى ذلك إلى حد كبير جداً ، وقد اكتسبوا مهارتهم الطبية من التجارب أكثر مما اكتسبوها من الدراسة النظرية .

---

(١) راجع عيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ج ١ ص ١٠٩ وما بعدها، وبلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب للآلوسى ج ٣ ص ٣٢٨ وما بعدها .

وليس بين يدى من النصوص التاريخية ما يدل على أن أحداً من هؤلاء تولّى العلاج النفسانى .

وكان بالجزيرة بجانب هؤلاء الأطباء طائفة من الكهنة الذين ادعوا أنهم كانوا يعلمون الغيب ، وأنهم قادرون على استخدام الجن والشياطين فى الاتصال بالسماء واستراق أخبار الغيب . وليس من البعيد أن بعضهم أو كلهم حاولوا علاج الأمراض العقلية بوسائل نفسانية، بحكم ما كان لهم من قوة نفوذ، ومقدرة على التأثير فى النفوس.

وليس من الحق فى شىء أن ننكر أن الأطباء والكهنة تناولوا العلاج النفسانى فى الجاهلية على أساس أنه لم تصل إلينا نصوص تاريخية تؤيد أنهم تناولوه ؛ إذ من الجائز أن تكون هناك نصوص من هذا القبيل ولكنها لم تصل إلينا، أو أن الحوادث الدالة على أنهم تناولوا هذا الفن لم تدوّن .

ومع أننا لم نعثر على مايدل على أن أطباء العرب وكهنتهم قد تناولوا الطب النفسانى فى العصر الجاهلى ، فإن التاريخ يقص علينا أن عرب الجاهلية قد اتبعوا عادات[1] طبية أو وقائية معيّنة شاع أمرها فيما بينهم ، ودرجوا على اتباعها فى حالات معينة .

فقد آمنوا بتأثير الحرزات والأحجار والرقى والتمائم ، وكانوا يستخدمونها لأغراض مختلفة منها :

(١) التخلص من بعض الآلام أو الأمراض .

(٢) اكتساب الثقة بالنفس عند مقابلة الحكام أو الخصوم .

(٣) التحبُّب إلى الناس .

(٤) تجنب الآفات عامة وإصابة العين خاصة .

فقد كانوا يعتقدون أن الرجل منهم إذا خدرت رجله ذكر من يحب ، أو دعاه

(١) راجع بلوغ الأرب ج ٣ ص ٥ وما بعدها .

فيذهب خدرها ، وأن من اختلجت عينه إذا قال : « أرى من أحب » فإن كان غائباً توقع قدومه ، وإن كان بعيداً توقع قربه ـ فيذهب اختلاج عينه .

وكانوا إذا خافوا على الرجل الجنون أو تعرّض الأرواح الخبيثة له نجّسوه بتعليق الأقذار عليه ؛ كخرقة الحيض وعظام الموتى .

وإذا ظنوا بالرجل مسًّا من الجن عالجوه بالنُّشرة وهى ضرب من الرقية .

وكانوا يعتقدون أن تناول دم الرئيس يشفى من الكَلَب .

وأن العاشق إذا سُقى من السلوانة يسلو . والسلوانة حرزنة بيضاء شفافة ، أو هى ـ كما يقول اللحيانى ـ تراب من قبر يُسقى به العاشق .

ومن خرزاتهم التى اعتدُّوا بها (الخَصمة) وهى خرزة للدخول على السلطان أو الخصوم تجعل تحت فص الخاتم ، أو فى زر القميص ، أو فى حمائل السيف . وكانوا يرون أن تعليق الهنَّمة ، أو الفطْسة ، أو القَبَلة ، أو الدردبيس يحبب الرجال فى النساء . وهذه كلها أنواع من الخرز .

وكانوا يعلقون التميمة ـ وهى خرزة خاصة ـ لمنع الآفات ، وخرزة أخرى سوداء تسمى الكحلة لدفع العين عن الصبيان ، وخرزة بيضاء تسمى القَبَلة تعلق فى عنق الفرس من العين .

ولما جاء الإسلام أنكر هذه العادات وما يشبهها ، وعدّ اتباعها شركا ؛ لأنه ينطوى على نسبة التأثير لغير الله . وعلى الرغم من ذلك لم يُقض عليها القضاء التام ؛ بدليل استمرار بعضها أو ما يشبهها حتى عصرنا هذا ؛ فلا يزال كثير من العامة يستخدمون التمائم والرقى ، ويقيمون حفلات الزار ، ويعقدون جلسات للعلاج بالأرواح .

وإننا إذا نظرنا إلى هذه العادات من الناحية النفسية ـ بقطع النظر عن حكم

الشرع ـ لم يكن هناك مجال للعجب والاستغراب حين نسمع بنجاحها وتحقق أغراضها؛ فإن نجاحها إن تم إنما يرجع إلى الأساس الذى أوضحناه آنفاً، وهو اعتقاد من يتبعها اعتقاداً جازماً بمنفعتها ونجاحها .

وأنت تعلم أن هذا الاعتقاد هو مايسميه علماء النفس « بالإيحاء الذاتى »، الذى أصبح من الثابت المقرر قوة تأثيره فى النفس تأثيراً فعالاً .

وهـذا التعليل مقبول ـ على ما يظهر ـ بالنسبة للغرضين الأول والثانى ؛ أى التخلص من الآلام أو الأمراض ، واكتساب الثقة بالنفس . أما بالنسبة للأمراض الأخرى فليس كذلك .

ولعل التعليل الصحيح لتأثير الحرزات ونحوها فى التحبب إلى الناس هو أن حمل الحرزة يوحى إلى حاملها أن يشعر شعوراً خاصاً نحو نفسه ، وهذا الشعور يحمله على أن يسلك مسلكاً خاصاً يحببه إلى غيره فتحدث المحبة بالفعل . ألا ترى أن من يحمل كمية كبيرة من النقود كثيراً ما يشعر بشىء من العزة والعظمة ، ويسلك مسلكاً خاصاً يحمل النـاس على احترامه وحسن الظن به ، أما من لا يكون فى جيبه مال فترى علامات البؤس والشقاء بادية عليه، وتراه مع ذلك يتبع سلوكاً يدعو الأشخاص العاديين إلى النظر إليه نظرة استصغار .

ولعل تأثير التمائم ونحوها فى منع العين يرجع إلى أن وجودها معلقة حول الرقبة مثلاً يوجه إليها الأنظار ، ويجعلها موضع الاهتمام فتنصرف إليها الأعين .

أما تأثيرها فى تجنب الآفات فلعله يرجع إلى أنها تكسب حاملها حصانة وثقة بالنفس، وتمده بأفكار قوية مضادة للإصابة؛ فتكون بمثابة قوة روحية محصنة للجسم، تقيه شر التأثر بالآفات .

وإنما دعانا إلى تلمس التعليل النفسانى لنجاح هذه العادات مانراه من عدم وجود علاقات مادية بين وسائل العلاج أو الوقاية وبين الأمراض أو الآفات ؛ فأنت لاترى علاقة مادية بين ذكر الحبيب وخدر الرجل ، ولا بين التنجس والجنون ، ولا بين الرقية ومس الشيطان ، ولا بين الشرب من السلوانة والعشق ، وهكذا .

وإذ لم يكن هناك سبيل إلى التعليل المادى كان من الضرورى الالتجاء إلى التعليل النفسانى على نحو ما ذكرنا .

أما نجاح تلك الوسائل فى تأدية أغراضها ولو فى بعض الحالات فثابت لا محالة ، ولولا ذلك ما صار اتباعها عادة شائعة يتناوبها الخلف عن السلف ؛ إذ أن الغالب أن العادة التى تثبت التجارب منفعتها ـ ولو فى بعض الحالات ـ هى التى تبقى ؛ أما غيرها فلا يلبث أن ينقرض .

(ب) العـــلاج بالقرآن

هذه هى خلاصة القول فى العادات الطبية التى شاعت بين العرب فى الجاهلية . ولما جاء الإسلام أنكرها، ولكنه أتى بما هو أهم منها وأجل شأناً ذلك هو الاستشفاء بالقرآن الكريم الذى فيه يقول الله تعالى : « وننزّل من القرآن ماهو شفاء ورحمةٌ للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا . »[1]

يرى بعض المفسرين[2] أن الغرض من الشفاء هنا هو الشفاء من الأمراض الذى هو من خواص آيات الشفاء الست وهى : (١) ويشف صدور قوم مؤمنين[3] ، و (٢) شفاء لما فى الصدور[4] ، و (٣) فيه شفاء للناس[5] ، و (٤) وننزل من

---

(١) سورة الإسراء آية ٨٢ (٢) راجع تفسير روح المعانى للآلوسى ج ٤ ص ٥٧٥
(٣) التوبة ١٥ (٤) يونس ٥٧ (٥) النحل ٦٩

القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ، و (٥) وإذا مرضت فهو يشفين[١]، و (٦) قل هى للذين آمنوا هدًى وشفاء[٢] .

قال السبكى وقد جربت كثيراً . وعن القشيرى أنه مرض له ولد أيس من حياته، فرأى الله تعالى فى منامه فشكا له سبحانه ذلك ، فقال له : اجمع آيات الشفاء واقرأها عليه ، أو اكتبها فى إناء واسقه فيه ماحيت به ، ففعل فشفاه الله .

قال الآلوس: والأطباء معترفون بأن من الأمور والرقى مايشفى بخاصية روحانية. وكان ابن سيرين لايرى بأساً بالشىء من القرآن يعلقه الإنسان كبيراً أو صغيراً مطلقاً. وهو الذى عليه الناس قديماً وحديثاً فى سائر الأمصار .

ويرى فريق من المفسرين أن « من » فى الآية الكريمة السابقة ليست للتبعيض وإنما هى للجنس كما فى قوله تعالى : « فاجتنبوا الرجس من الأوثان »[٣] . ومن هؤلاء المفسرين الإمام فخر الدين الرازى . وهاك ما قاله فى هذا الصدد . وهو قول يفيض معرفة وعلماً وفصاحة وبلاغة ، يقول رحمه الله[٤] :

« واعلم أن القرآن شفاء من الأمراض الروحانية ، وشفاء أيضاً من الأمراض الجسمانية ؛ أما كونه شفاء من الأمراض الروحانية فظاهر ؛ وذلك لأن الأمراض الروحانية نوعان : الاعتقادات الباطلة ، والأخلاق المذمومة . أما الاعتقادات الباطلة فأشدها فساداً الاعتقادات الفاسدة فى الإلهيات والنبوات والمعاد والقضاء والقدر ، والقرآن كتاب مشتمل على دلائل المذهب الحق فى هذه المطالب ، وإبطال المذاهب الباطلة فيها . ولما كان أقوى الأمراض الروحانية هو الخطأ فى هذه المطالب والقرآن مشتمل على الدلائل الكاشفة عما فى هذه المذاهب الباطلة من العيوب الباطنة لا جرم كان القرآن شفاء من هذا النوع من المرض الروحانى » .

---

(١) الشعراء ٨٠ (٢) فصلت ٤٤ (٣) الحج ٣٠ (٤) مفاتيح الغيب جـ ٥ ص ٤٣٣

« وأما الأخلاق المذمومة فالقرآن مشتمل على تفصيلها ، وتعريف ما فيها من المفاسد ، والإرشاد إلى الأخلاق الفاضلة الكاملة والأعمال المحمودة ، فكان القرآن شفاء من هذا النوع من المرض ، فثبت أن القرآن شفاء من جميع الأمراض الروحانية » .

« وأما كونه شفاء من الأمراض الجسمانية فلأن التبرك بقراءته يدفع كثيراً من الأمراض . ولما اعترف الجمهور من الفلاسفة وأصحاب الطلسمات بأن لقراءة الرقى المجهولة والعزائم التى لا يُفهم منها شىء آثاراً عظيمة فى تحصيل المنافع ودفع المفاسد، فلأن تكون قراءة القرآن العظيم، المشتمل على ذكر جلال الله وكبريائه ، وتعظيمه الملائكة المقربين ، وتحقير المردة والشياطين ـ سبباً لحصول النفع فى الدين والدنيا من باب أولى . ويتأكد ما ذكرنا بما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مَن لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله تعالى . »

« وأما كونه رحمة للمؤمنين فاعلم أنا بيّنا أن الأرواح البشرية مريضة بسبب العقائد الباطلة والأخلاق الفاسدة . والقرآن قسمان بعضهما ما يفيد الخلاص عن شبهات الضالين وتمويهات المبطلين ، وهو الشفاء ، وبعضهما مايفيد تعليم كيفية اكتساب العلوم العالية ، والأخلاق الفاضلة ، التى بها يصل الإنسان إلى جوار رب العالمين، والاختلاط بزمرة الملائكة المقربين، وهو الرحمة . ولما كان إزالة المرض مقدمة على السعى فى تكميل موجبات الصحة لاجرم بدأ الله تعالى فى هذه الآية بذكر الشفاء، ثم أتبعه بذكر الرحمة . »

« واعلم أنه تعالى لما بيّن كون القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين بيّن كونه سبباً للخسار والضلال فى حق الظالمين ، والمراد به المشركون . وإنما كان كذلك لأن سماع القرآن يزيدهم غيظاً وغضباً، وحقداً وحسداً ، وهذه الأخلاق الذميمة تدعوهم

إلى الأعمال الباطلة ، وتزيد فى تقوية تلك الأخلاق الفاسدة فى جواهر نفوسهم . ثم لايزال الخلق الخبيث النفسانى يحمل على الأعمال الفاسدة ، والإتيان بتلك الأعمال يقوى تلك الأخلاق. فبهذا الطريق يصير القرآن سببًا لتزايد هؤلاء المشركين الضالين فى درجات الخزى والضلال والفساد والنكال . »

وإنك لترى من نص القرآن نفسه، ومن هـذا التفسير الرائع أن الشىء الواحد قد يكون نعمة لبعض الناس ، ونقمة لبعض ، وذلك تبعًا لوجهة نظرهم إليه واعتقادهم فيه ؛ فالمؤمنون يطمئنون إلى القرآن، فيوحى إليهم بصحة الجسم والنفس والخلق ، والمشركون يكفرون به، ولا ترتاح نفوسهم إليه، فيسلكون معه مسلك المكابرة والعناد، وتتحرك فى أنفسهم الأحقاد، وتطغى عليهم انفعالاتهم المريضة، فلا يزدادون إلا ضلالا وفساداً ، ولا غرو فالنعمة للرجل خير ورحمة ، ولعدوه شر ونقمة .

وهنا تحضرنى حكاية طريفة تعد دليلاً عمليًا على صحة ما تقدم :

روى النظامى العروض السمرقندى[1] عن الإمام أبى بكر الدقاق قال : أصيب رجل من أعيان نيسابور بالقولنج سنة ٥٠٢ هـ ، فاستدعانى لعلاجه ، ففحصته وشغلت بعلاجه ، وقمت بما فتح الله علىّ به من أنواع العلاج المناسبة لتلك الحالة ، ولكن لم تبد على المريض علامات الشفاء ، ومر على مرضه ثلاثة أيام . وفى وقت العشاء رجعت إلى منزلى، وأنا معتقد أن المريض سيقضى نحبه منتصف الليل. ثم أخذتنى سنة من النوم وأنا أشعر بالألم ، واستيقظت فى الصباح وليس لدى شك فى أن المريض قد قضى ، وصعدت إلى سطح البيت ، ووليت وجهى نحو بيت المريض، وأنصتُّ، فلم أسمع صراخًا يدل على وفاته، فقرأت سورة الفاتحة موليًا وجهى نحو ذلك البيت ثم قلت : « إلهى! وسيدى ! ومولاى ! لقد قلت فى كلامك المبرم وكتابك المحكم : وننزل من القرآن

(١) راجع كتاب جهار مقاله بالفارسية (ص ٦٩ ، ٧٠)

ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين . » وقد حلت بى الحسرة على ذلك الشاب، الذى يستمتع بأسباب النعيم، وقد امتلأت نفسه آمالاً وأمانىّ . ثم توضأت ودخلت المصلى، وصليت النوافل ، وإذا بشخص يقرع باب الدار ، فالتفتُّ فإذا هو البشير يقول : « افتح! » فقلت : « ماذا حدث؟ » قال : « لقد استراح المريض الآن. » ، فعلمت أن ذلك ببركة الفاتحة ، وأن هذه جرعة من الصيدلية الربانية . فكانت هذه تجربة حسنة لى . وقد وصفت هذه الجرعة عدة مرات فجاءت موافقة ، وتم بها الشفاء . ولذا يجب أن يكون الطبيب صادق الاعتقاد ، وأن يولى أوامر الشرع ونواهيه ما تستحق من تعظيم وإجلال . »

ولا غرو ؛ فإن الدعاء الصادر عن يقين ثابت ، وإيمان عميق صادق ينفذ من القلب إلى القلب ، ويعمل عمله فى النفوس طبقًا لتلك الظاهرة النفسية العجيبة المسماة تيليباثى Telepathy ؛ أى تخاطب الأرواح، التى على أساسها قامت طريقة علاج الغائب Absent Treatment التى سنتحدث عنها فيما يأتى .

الفصل الرابع

العلاج النفسانى عند فلاسفة العرب

— ١ — علاج الأمراض الجسمية والعقلية

بينما كان الظلام والجهل يعمان ربوع أوربة فى تلك العصور المظلمة ، عصور الظلم والاضطهاد والتعذيب والوحشية ، كان النور والعرفان يشرقان فى الشرق، وينتشران بين الأمم الإسلامية ، حيث كانت الحضارة العربية قد بلغت أوج عظمتها ، ووصلت إلى ما لم تصل إليه حضارة من قبلها ، وظهر بين العرب فى العصر الذهبى الإسلامى عدد كبير من مهرة الأطباء، الذين ورثوا طب (بقراط وجالينوس) وغيرهما من أطباء اليونان ، بل زادوا على ذلك التراث ، وأتوا فى علم الطب ومزاولة مهنته بالعجب العجاب ، ونبغوا فى الأمرين معاً نبوغاً فائقاً ، حتى بهروا أطباء أوربا فى القرون الوسطى ، وكانوا أساتذة لهم فى الدراسة الطبية وغيرها إبان النهضة الأوربية الأولى.

وتدل أوثق المصادر التاريخية على أن بعض أطباء العرب قد حذقوا العلاج النفسانى ، وتولوا معالجة مرضى العقول بطرق علمية لا تقل فى أهميتها عن الطرق المتبعة الآن ، وقد كان نصيبهم فى ذلك النجاح والتوفيق إلى أبعد حد ممكن .

وكان أمهر هؤلاء، وأبعدهم صيتاً ، وأقواهم نفوذاً، ذلكم النطاسى الماهر، والباحث القدير ، والفيلسوف البارع ، واللغوى المحقق ، والمؤلف الموفق ، الشاعر الناثر الشيخ الرئيس ، حجة الحق ، أبو على الحسين بن على بن سينا .

برع هذا الرجل العالمى الفذ فى مهنة الطب ، وهو لايزال حدثاً لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره . وقد أجمع الرواة على أنه نجح نجاحاً باهراً فى معالجة كثير من المرضى الذين عجز الأطباء فى عصره عن معالجتهم ، ولم يكن يعالج مرضى الأجسام فحسب ، ولكنه أفلح أيضاً فى معالجة مرضى العقول بطرق عقلية .

وكانت له دراية تامة بمرض العشق وطرق علاجه، يدل على ذلك ما ذكره فى كتاب القانون[1] فى فصل العشق ، حيث قال :

« العشق مرض وسواسى شبيه بالماليخوليا يكون الإنسان قد جلبه إلى نفسه بتسليط فكرته على استحسان بعض الصور والشمائل ، ثم أعانته على ذلك شهوته . وعلامته غور العين ويبسها ، وعدم الدمع إلا عند البكاء ، وحركة متصلة للجفن ضحاكة ، كأنه ينظر إلى شىء لذيذ ، أو يسمع خبراً ساراً ، أو أنه يمزح . ويكون نفَسُه كثير الانقطاع والاسترداد ، فيكون كثير الصعداء ، ويتغيَّر حاله إلى فرح وضحك ، أو إلى غم وبكاء عند سماع الغزل ، ولا سيما عند ذكر الهجر والنوى ، وتكون جميع أعضائه ذابلة خلا العين ، فإنها تكون — مع غور مقلتها — كبيرة الجفن سميته ؛ لسهره وتزفره المنجر إلى رأسه . ولا يكون لشمائله نظام ، ويكون نبضه نبضاً مختلفاً بلا نظام ألبتة ، كنبض أصحاب الهموم . ويتغيَّر نبضه وحاله عند ذكر المعشوق خاصة ، وعند لقائه بغتة ، ويمكن من ذلك أن يستدل على المعشوق مَن هو إذا لم يعترف العاشق به ؛ فإن معرفة معشوقه إحدى سبل علاجه . والحيلة فى ذلك أن يذكر أسماء كثيرة تعاد مراراً ، وتكون اليد على نبض المريض ، فإذا اختلف بذلك اختلافاً عظيما ، وصار شبه المنقطع ، ثم عاودتَ وجربت ذلك مراراً علمت أنه اسم المعشوق. ثم يذكر كذلك السكك والمساكن، والحرف والصناعات، والنسب والبلدان

(١) راجع ج ٢ ص ٧١ ، ٧٢ من كتاب القانون .

وتضيف منها إلى اسم المعشوق ، ويحفظ النبض ، حتى إذا كان يتغيَّر عند ذكر شيء مراراً جمعت من ذلك خواص معشوقه من الاسم والحلة والحرفة ، وعرفته . فإنا قد جرَّبنا ذلك ، واستخرجنا ما كان فى الوقوف عليه منفعة . ثم إن لم تجد علاجًا إلا تدبير الجمع بينهما على وجه يُحله الدين والشريعة فعلت . وقد رأينا من عاودته السلامة والقوة وعاد إلى صحته ، وكان قد بلغ الذبول ، وجاوزه ، وقاسى الأمراض المصبية المزمنة ، والحميات الطويلة ؛ بسبب ضعف القوى لشدة العشق — لما أحسَّ بوصل من معشوقه بعد مطل — معاودة فى أقصر مدة قضينا به العجب ، واستدللنا على طاعة الطبيعة للأوهام النفسانية . »

هذه عبارة جامعة تشرح لنا بشيء من التفصيل طريقة من طرق علاج العشق دونها كل طريقة من الطرق المتبعة الآن . وهل وصل الطب الحديث إلى أكثر مما وصل إليه ابن سينا حين قال : « استدللنا على طاعة الطبيعة للأوهام النفسانية ؟ »

على أن ابن سينا لم يقل هذا القول جزافًا ، ولم يدعه يسبح فى عالم النظريات ، ولكنه طبقه تطبيقًا عمليًا فى معالجة بعض المرضى معالجة ناجحة . وإليك حادثة تثبت ذلك :

روى النظامى العروضى السمرقندى فى كتابه « چهار مقاله »[1] أنه عرض على ابن سينا ابن أخت شمس المعالى قابوس بن وشمكير أمير جورجان ، وقد أعيا الأطباء أمره ، فلما رآه وخاطبه فى شأن مرضه تبيَّن له أن مرضه هو الحب . ولم يشأ المريض أن يبوح باسم محبوبته . ولما علم ابن سينا أن شفاء المريض متوقف على معرفة محبوبته ، وإزالة ما عنده من وجدانات وعواطف كامنة مرتبطة بها ، أخذ على نفسه أن يعرف اسمها بأية وسيلة ، فأمر بإحضار أكبر سكان المدينة سنًّا ، فلما حضر قال له :

(١) چهار مقاله ص ٧٨ — ٨٠ طبعة ليدن سنة ١٩٠٩ .

«أتعرف شوارع هذه المدينة وسكانها ؟» قال: «نعم» . فأمره أن يذكر أسماء الشوارع شارعًا شارعًا ، وهو قابض على يد المريض؛ ليتحقق من مقدار سرعة نبضه . فلما ذكر اسم أحد الشوارع أسرع نبض المريض ، فأمر الرجل أن يذكر أسماء الشوارع المتفرعة من هذا الشارع ، فلما أتى إلى اسم أحدها ازدادت سرعة النبض ثانية. فأمر رجلاً آخر أن يقص عليه أسماء البيوت الواقعة فى هـذا الشارع الصغير ، فلاحظ ابن سينا زيادة نبض المريض عند ذكر أحد البيوت . فطلب من رجل ثالث أن يخبره بأسماء سكان هـذا البيت من الفتيات ، فلما أتى اسم المحبوبة أسرع النبض ، فالتفت ابن سينا إلى المريض ، وقال له : أليست هذه محبوبتك ؟

وبالبحث عُلِم أنها هى محبوبته ، وأنها ابنة خالته،وأن الشاب كان يحبها حبًّا جما، ولم يجرؤ أن يذيع سره خوفا من أهله ، ولـكنهم لما علموا أن شفاءه فى التزوج بها زفوها إليه ؛ فبرئ من مرضه وعاد إلى حالته الطبيعية .

وقد ذكر ابن سينا فى القانون بيانًا تفصيليًا لعلاج مرضى العشق ، نقتطف منـه ما يأتى :

قال الشيخ الرئيس مما يبرئ المرضى بالعشق : « إيقاعهم فى خصومات وأشغال ومنازعات ، وبالجملة أمورٍ شاغلة، فإن ذلك ربما أنساهم ما أدنفهم. أو يحتال فى تعشيقهم غير المعشوق ممن تحله الشريعة ، ثم ينقطع فـكرهم عن الثانى قبل أن يستحكم ، وبعد أن يتناسوا الأول . وإن كان العاشق من العقلاء فإن النصيحة والعظة له ، والاستهزاء به وتعنيفه ، والتصوير لديه أن مابه إنما هو وسوسة وضرب من الجنون مما لا ينفع نفعاً ، فإن العلاج ناجح فى مثل هذا الباب . وأيضاً تسليط العجائز عليـه ليبغضن المعشوق إليه ، ويذكرن منه أحوالا قذرة ، ويحكين له عنه أموراً منفراً منها، ويحكين له منه الجفاء الـكثير ؛ فإن هذا مما يسكّن كثيراً وإن كان قد يغرى آخرين.

ومما ينفع فى ذلك أن تحاكى هؤلاء العجائز صورة المعشوق بتشبيهات قبيحة ، ويمثلن أعضاء وجهه بمحاكيات مبغضة ، ويدمن ذلك ويسهبن فيه ، فإن هذا عملهن وهن أحذق فيه من الرجال . . . وكذلك يمكنهن أن يجتهدن فى أن ينقلن هوى العاشق إلى غير المعشوق بتدريج ، ثم يقطعن صنعتهن قبل تمكن الهوى الثانى . »

« ومن الناس من يسلّيه إما الطرب والسماع ، ومنهم مَن يزيد ذلك فى غرامه . ويمكن أن يتعرف ذلك ؛ وإما الصيد وأنواع اللعب والكرامات المتجددة من السلاطين ، وكذلك تنوّع الغموم العظيمة . وكلها مسلٍ . »(١)

وقد نبغ ابن سينا أيضاً فى معالجة مرض المالنخوليا الذى قال عنه : « إنه يُعرف بتغيّر الظنون والفكر عن المجرى الطبيعى إلى النساء ، وإلى الخوف والرداءة . فمن أعراضه الظاهرة : ظن ردىء ، وخوف بلا سبب ، وسرعة غضب ، وحب التخلى ، واختلاج ودوّار ودَوِىٌّ ؛ فإذا استحكم فالتفزع ، وسوء الظن ، والغم ، والوحشة ، والكرب ، وهذيان كلام . وتكون هذه الأوصاف غير محدودة . وبعضهم يخاف سقوط السماء عليه ، وبعضهم يخاف ابتلاع الأرض إياه ، وبعضهم يخاف الجن ، وبعضهم يخاف الشيطان ، وبعضهم يخاف اللصوص ، وبعضهم يتقى ألا يدخل عليه سبع . وقد يكون للأمور الماضية فى ذلك تأثير ، ومع ذلك فقد يتخيّلون أموراً بين أعينهم ليست . وربما تخيّلوا أنفسهم أنهم صاروا ملوكاً أو سباعاً أو شياطين ، أو طيوراً أو آلات صناعية . ثم منهم من يضحك ، ومن يبكى ، ومنهم من يحب الموت ، ومن يبغضه . »(٢)

ومما ذكره فى علاج هذا المرض : « أن يُشغل صاحبه بشىء كيف كان ، وأن

---

(١) القانون ج ٢ ص ٧١ ، ٧٢ .

(٢) راجع القانون ج ٢ ص ٦٥ وما بعدها تجد هناك بحثاً مستفيضاً ممتعاً لمرض المالنخوليا .

يحضره من يحتشمه ومن يستطيبه ، ويُشغل أيضاً بالسماع والمطربات ، ولا أضر له من الفراغ والخلوة . »

«وكثيراً مايغتم بعوارض تقع له ، أو يخاف أمراً فيُشغل به عن الفكرة ويعاق عنها ، فإن نفس إعراضهم عن الفكرة علاج لهم أصيل . »

هذا ما قاله ابن سينا عن الماليخوليا من حيث أعراضها ومعالجتها بطرق نفسية . وهو لا يقل كثيراً عما يقوله المحدثون فى الموضوع نفسه .

وهاك حادثة تبيّن مهارة ابن سينا فى معالجة هذا المرض بالذات : حكى النظّامى العروضى السمرقندى فى كتابه الآنف الذكر : «أن فتى من بنى بويه أصيب بالماليخوليا، واشتدت به العلة حتى اعتقد أنه قد صار بقرة، وكان يردد الصياح طول النهار ويقول: « اذبحونى ؛ فإن طعاماً شهيًّا يمكن أن يتخذ من لحمى . » وقد امتنع عن الطعام والشراب ، فساءت حاله، وخارت قواه ، ونحل جسمه ، وعجز الأطباء عن معالجته.»

«وكان الشيخ الرئيس ابن سينا عالى الشأن ، رفيع المنزلة ، يتولّى الوزارة لعلاء الدولة البويهى ، ويقضى كثيراً من وقتــه فى التدريس والتصنيف . وقد انتشر فى الآفاق ذكره ، وعلم الخاص والعام بمهارته فى التطبيب وعلاج مرضى العقول . فهرع أهل المريض إلى علاء الدولة ، وتوسلوا به لدى ابن سينا ، وعرض الأمير الحالة على الشيخ ، فقبل أن يتولّى العلاج ، ثم قال : « بشروا الفتى أن القصاب آتٍ ليذبحه. » وعلم المريض بذلك فسر أيما سرور . »

«ثم إن ابن سينا دخل دار المريض ومعه رجلان وفى يده سكين ، وقال : « أرونى أين هذه البقرة كى أذبحها. » فخار الفتى خوار البقر ، كأنما يريد أن يقول: «هأنذا. » فقال ابن سينا : « أخرجوه إلى فناء الدار ، وشدوا وثاقه ، ثم اطرحوه أرضاً . »

وسمع المريض ذلك فأسرع إلى فناء الدار ، واضطجع على جانبه الأيمن . ولما شدوا وثاقه أقبل ابن سينا عليه ، وفى يديه سكينان يسنّ أحدهما على الآخر ، ثم أهوى على المريض وأمسك بجنبه ، كما هى عادة القصابين ، ثم قال : « عجباً ! إن هذه البقرة لهزيلة لا تصلح للذبح ؛ قدموا لها العلف ، وأطعموها حتى تسمن . »

« ثم نهض وخرج ، وقال للقوم : « فكوا وثاقه ، وضعوا أمامه ما أصفه من طعام ، وقولوا له كُلْ حتى تسمن بسرعة . » ففعلوا وكان المريض يأكل كل مايقدم له من طعام، على أمل أن يسمن ويصلح للذبح ، وقد أشرف الأطباء على علاجه طبقاً لإرشاد الشيخ ، وفى شهر واحد صلحت حاله وبرئ من مرضه[1] . »

ونقل النظامى الآنف الذكر عن ابن سينا أنه قال فى كتاب المبدأ والمعاد : «سمعت أن طبيباً بلغ لدى ملوك السامانيين منزلة رفيعة بحيث كان يُسمح له بدخول حرم القصر الملكى، واختبار بعض النساء . فى ذات يوم كان ذلك الطبيب جالسًا فى الحرم مع أحد هؤلاء الملوك فى مكان لا يسمح لأحد من الرجال أن يدخله ، فطلب الملك الطعام ، فحضرت الجوارى، ولكن واحدة منهن ـ وكانت الطباخة ـ ما كادت ترفع المائدة من فوق رأسها حتى انحنى ظهرها وتقوس ، فاضطرت إلى إلقاء المائدة على الأرض ، وأرادت النهوض فلم تستطع ، فبقيت كما هى لا تبدى حراكاً ؛ لأن ريحاً غليظاً (روماتزم) حل بمفاصلها . فالتفت الملك إلى الطبيب ، وأشار إليه بأن يعالجها فى الحال بأى طريقة ممكنة. ولما لم يكن هناك أمل فى المعالجة الطبيعية المادية؛ لبعد الأدوية ، وعدم إمكان الحصول عليها بسرعة ، لم يكن بد من أن يفكر الطبيب فى العلاج النفسانى ، فأمر بأن يسقطوا الخمار عن رأسها ، ويعروا رأسها ووجهها . وإنما أمر بذلك لكى تستنكر هذا الاعتداء، فتخجل، وتتحرك حرارتها، فتبرأ من علتها.

---

(١) جهار مقاله ص ٨٢ ، ٨٣ .

ولكن على الرغم من ذلك لم تتغير حالتها ، ففكر الطبيب فى عمل ما هو أشنع مما تقدم ، فأمر أن يسقطوا سروالها ، ففعلوا ، فاعتراها الخجل ، وتجددت حرارة فى بطنها حلّت ذلك الريح الغليظ ؛ فبرئت من إصابتها فى الحال ، ووقفت معتدلة ، وعادت إليها صحتها[1] . »

وذكر كل من القفطى فى كتاب « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » وابن أبى أصيبعة فى كتاب « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » حادثة تشبه الحادثة السابقة ، إذ قالا : « فى بعض الأيام تمطت حظية للرشيد ، ورفعت يدها ، فبقيت منبسطة لا يمكنها ردّها ، والأطباء يعالجونها بالتمريخ والأدهان ، فلا ينفع ذلك شيئاً . فقال الرشيد لجعفر بن يحيى البرمكى : « قد بقيت هذه الصبية بعلتها . » فقال له جعفر : « لى طبيب ماهر هو جبرائيل بن بختيشوع ، تدعوه وتخاطبه فى معنى هذا المرض ، فلعل عنده حيلة فى علاجه . » فأمر بإحضاره ، ولما حضر قال له الرشيد : « ما اسمك ؟ » قال : « جبرائيل » . قال : « أى شىء تعرف من الطب ؟ » . قال : « أبرد الحار ، وأسخن البارد ، وأرطب اليابس ، وأجفف الرطب الخارج عن الطبع . » فضحك الرشيد ، وقال : « هذا غاية ما يحتاج إليه فى صناعة الطب . » ثم شرح له حالة الصبية فقال له جبرائيل : « إن لم يسخط علىّ أمير المؤمنين فلها عندى حيلة . » قال له الرشيد : « ما هى ؟ » قال : « تخرج الجارية إلى هنا بحضرة الجميع حتى أعمل ما أريده وتمهّلْ علىّ ، ولا تعجل بالسخط . » فأمر الرشيد بإحضار الجارية . وحين رآها جبرائيل أسرع إليها ونكس رأسه ، وأمسك ذيلها ، كأنه يريد أن يكشفها ، فانزعجت الجارية ، ومن شدة الحياء والانزعاج استرسلت أعضاؤها ، وبسطت يدها إلى أسفل ، وأمسكت ذيلها . فقال جبرائيل : « قد برئت يا أمير المؤمنين . » فقال

---

(١) جهار مقاله ص ٧٣ .

الرشيد للجارية : « ابسطى يدك يمنة ويسرة . » ففعلت . فعجب الرشيد وكل من كان حاضراً . وأمر لجبرائيل فى الوقت بخمسمائة درهم ، وأحبه ، وجعله رئيساً على جميع الأطباء[1] . »

وإليك حادثة من نوع آخر تدل على مهارة محمد بن زكريا الرازى الطبيب (المتوفى حوالى سنة ٣٦٤ هـ)[2] فى العلاج النفسانى .

ذكر النظامى أيضاً : «أن الأمير منصور بن نوح بن نصر السامانى أصيب بمرض شديد تمكّن من نفسه ، وطال عليه الأمد ، فصار مزمناً ، وعجز الأطباء عن علاجه. فأرسل الأمير فى طلب محمد بن زكريا الرازى الطبيب المشهور ليعالجه ، فحضر الرازى إلى بخارى ، عاصمة الدولة السامانية ، وقابل الأمير ، وشرع فى علاجه . ولكنه لم يفلح بعد أن جرّب معه عدة أدوية مادية . فجاء يومًا إلى الأمير ، وقال: «أيها الأمير سأحاول غداً علاجك بطريقة أخرى ، ولكن هذا يستدعى أن تضحى بالحصان الفلانى من خيلك ، وبالبغل الفلانى من بغالك ، وكان الحصان والبغل معروفين بشدة السرعة فى العدو . »

«ولما كان الغد أخذ الرازى الأمير ، وذهب معه إلى حمام خارج القصر ، وأعد الحصان والبغل للركوب إعداداً تامًا ، وتركهما فى حراسة خادمه عند باب الحمام ، وأمر ألا يدخل الحمام أحد من خدم الأمير أو حشمه أو غيرهم ، ثم أخذ الأمير وأجلسه فى فناء الحمام المتوسط ، وأعطاه جرعة من شراب أعده ، وصب عليه ماء فاتراً ، وتركه حتى تتحرك الأخلاط التى بمفاصله ، ثم خرج ولبس ملابسه كاملة وأتى

(١) إخبار العلماء ص ٩٤ ، وعيون الأنباء ج ١ ص ١٢٧ ، وقد ذكرت هذه الحادثة برواية أخرى فى كتاب ثمرات الأوراق لابن حجة الحموى ج ١ ص ١٥٢–١٥٣ على هامش المستطرف من كل فن مستظرف للأبشيهى .

(٢) أي قبل مولد ابن سينا بتسع سنوات أو عشر .

إلى الأمير وفى يده سكين ، ووقف أمامه ، وأخـذ يسبه ويلعنه ، ويكيل له السباب والشتائم كيلاً . ثم قال له : « لقد أرسلت إلىّ خدمك وحشمك لإرغامى على الحضور لمعالجتك ، فشدوا وثاق ، وهددونى بالقتل إن لم أحضر معهم . لست ابن زكريا إن لم أعاقبك على هذه الأعمال . » عند ذلك ثار الأمير ثورة عنيفة ، وبدت آثار الغضب عليه ، ونهض من مكانه ، وجلس على ركبتيه ، فسحب الرجل سكينه ، واقترب من الأمير ، وزاد فى تهديده ووعيده . فاشتد غضب الأمير، وأخذ منه كل مأخذ ، فنهض ووقف على قدميه . وما حرّكه بعـد عجزه التام عن الحركة إلا غضبه من الرازى ، وخوفه على حياته هو . فما كان من الرازى ـ حين رأى الأمير وقد نهض على قدميه ـ إلا أن ولّى هارباً ، وانطلق يجرى نحو باب الحمام، فخرج وركب الحصان، وأمر خادمه أن يركب البغل ، وانطلقا مسرعين جادّيْن فى السير ، لا يلويان على شىء ، حتى وصلا مَرْو، ومن هناك أرسل الرازى إلى الأمير خطاباً يقول فيه : « أطال الله بقاء الأمير ، وأدامه معافى البدن ، نافذ الأمر ! إن خادمكم المخلص قد شرع فى علاجكم ، وبذل فى سبيل ذلك قصارى جهده ، فرأى أن العـلاج الطبيعى (أى بالأدوية والعقاقير) يطول أمده؛ لقلة الحرارة الغريزية، وضعف الجسم ضعفاً تاماً، فعدلت عن ذلك ولجأت إلى العلاج النفسانى ، فحملتك إلى الحمام ، وأعطيتك الجرعة ، وتركتك حتى تنضج الأخلاط فى المفاصل ، ثم أغضبتك بمـا فعلت ؛ كى أُمِدّ الحرارة الغريزية بمدد جديد تقوى معه على تحليل الأخلاط . وليس من الحـكمة ـ بعد أن حصل ما حصل ـ أن يكون بينى وبين الملك أى صلة . »

« كتب الرازى هذا الخطاب وأرسله مع خادمه، ولم يدر أن الملك قد برئ من مرضه ، وأن شفاءه كان سبباً فى سريان موجة من الغبطة والسرور بين سكان بخارى. وقد سأل الأمير عما حدث من الرازى ، فأخبروه بذلك ، فأمر أن يبحثوا عنـه

ففعلوا ، ولكنهم لم يجدوه ، ولم يشعروا فى اليوم السابع من تلك الحادثة إلا وقد حضر خادم الرازى راكبًا البغل ، ساحبًا الحصان . ولما مَثَل بين يدى الأمير قدم إليه الخطاب فقرأه وفهم الأمر، فعذر الرازى ، وأمر أن تهدى إليه هدية سنية[1].»

هذه الأمثلة تبيّن للقارئ الكريم مهارة العرب فى العلاج النفسانى ، أى العلاج بطرق أو وسائل نفسانية ، دون الالتجاء إلى الأدوية أو العقاقير الطبية، سواءأكان المرض المعالج نفسانيًا ، كما فى مرض العشق والمالنخوليا ، أم كان جثمانيًا ، كما فى وجع المفاصل أوتورمها المعروف (بالروماتزم) ، وهو الذى يسميه المرحوم الشيخ حمزة فتح الله بالرَّثية .

ويؤخذ مما هو مدون بكتب الطب التى ألّفها ابن سينا وغيره من أطباء العرب والمسلمين ، أن هؤلاء نجحوا فى معالجة بعض الأمراض العقلية بأدوية مادية، وبذلك يكونون قد نبغوا فى أنواع العلاج الأربعة ؛ أى علاج الأمراض الجثمانية علاجًا مادياً جثمانيًا أو علاجًا نفسانيًا ، وعلاج الأمراض العقلية علاجًا نفسانيًا أو علاجًا مادياً جثمانيًا . ويكونون قد تولوا علاج الأمراض العقلية بشتى الطرق والوسائل العلميـة، قبل أن تتولى علاجها أوربة بهذه الطرق بما يزيد على سبعمائة سنة .

ولم يكن العلاج النفسانى معروفاً فى الشرق لدى العرب وحدهم ؛ فإن التاريخ يقص علينا أن اليابانيين عرفوا فى القرن السادس عشر الميلادى كيف يعالجون الأمراض بوسائل نفسية . ومن المرجح أن الهنود كانوا على شىء من العلم بتأثير العوامل النفسية فى نشأة الأمراض ومعالجتها . وليس ببعيد أن يكون هؤلاء وهؤلاء أخذوا هذه الصناعة عن العرب ؛ فهم أسبق إلى توليها ، إذ كانوا يباشرونها بنجاح فى القرون الميلادية العاشر والحادى عشر والثانى عشر . وكان اليابانيون والهنود

(١) جهار مقاله ٧٤ ـ ٧٦ .

متصلين بالعرب فى العصور الإسلامية الزاهرة . وليس هنا موضع تفصيل لهذه الحقيقة التاريخية .

ولم تكن ممارسة الطب النفسانى على أيدى أطباء العرب قائمة على أساس من التجربة فحسب ، ولكنها قامت على أساس نظرى فلسفى ؛ فقد أدركوا ما بين الجسم والعقل من علاقة وثيقة ، وعلموا أن التأثير فى العقل بالوهم أو الإيحاء الذاتى يؤثر فى الجسم بالمرض أو الشفاء .

وإليك ما قاله ابن سينا فى هذا الصدد[1] :

« تأمّل حال المريض الذى توهّم أنه قد صح ، والصحيح الذى توهّم أنه مرض، فإن كثيراً ما يعرض من ذلك أن يكون إذا تأكدت الصورة فى نفسه وفى وهمه، انفعل منه عنصره (= جسمه) فكان الصحة أو المرض . ويكون ذلك أبلغ مما يفعله الطبيب بآلات ووسائط . ولهذا السبب يمكن الإنسان مثلا أن يعدو على جذع تبقى مطروحة فى القارعة من الطريق ، وإن كانت موضوعة كالجسر وتحتها هاوية ، لم يجسر أن يمشى عليها دبيبا إلا بالهوينا ؛ لأنه يتخيل فى نفسه صورة السقوط تخيلاً قوياً ، فيجيب إلى ذلك طبيعته وقوة أعضائه،ولا يجيب ضده من الثبات والاستقرار؛ فالصور إذا استحكم وجودها فى النفس ، واعتقاد أنها يجب أن توجد فقد يعرض كثيراً أن تنفعل عنها المادة التى من شأنها أن تنفعل عنها . »

هذا نص قليل المبنى كثير المعنى ، كلما قرأته استخرجت منه حقائق علمية، لا تقل كثيراً عما يقوله المحدثون من علماء العلاج النفسانى عن تأثير العقل فى الجسم ، أو عن تاثير الوهم أو الإيحاء الذاتى فى الصحة والمرض .

---

(١) كتاب الشفاء ج ١ ص ٣٤٤ ـ ٣٤٥ .

وقد تعجب إذا علمت أن مثال المشى على الجذع الذى ذكره ابن سينا هو المثال نفسه الذى يضربه المسيو كوى Coué الطبيب النفسانى المعاصر لبيان تأثير الوهم فى قوة الإرادة.

وهاك نصاً آخر من كلام ابن مسكويه (١) :

« إن حذاق الأطباء لا يقدمون على علاج مرض جسمانى إلا بعد أن يعرفوه، ويعرفوا السبب والعلة فيه، ثم يرومون مقابلته بأضداده من العلاجات، ويبتدئون من الحمية والأدوية اللطيفة، إلى أن ينتهوا فى بعضها إلى استعمال الأغذية الكريهة، والأدوية البشعة، وفى بعضها إلى القطع بالحديد، والكى بالنار. »

« ولما كان النفس قوة إلهية غير جسمانية، وكانت مع ذلك مستعملة لمزاج خاص، ومربوطة رباطاً طبيعيًا إلهياً، لا يفارق أحدهما صاحبه إلا بمشيئة الله عز وجل، وجب أن نعلم أن أحدهما متعلق بصاحبه متغيّر بتغيّره، فيصح بصحته، ويمرض بمرضه. »

« وذلك أنا كما نرى المريض من جهة بدنه — لا سيما إن كان سبب مرضه أحد الجزأين الشريفين أعنى الدماغ والقلب — يتغيّر عقله ويمرض حتى ينكر ذهنه، وفكره، وتخيّله، وسائر قوى نفسه الشريفة، ويحس هو من نفسه بذلك، كذلك أيضاً نجد المريض من جهة نفسه — إما بالغضب، وإما بالحزن، وإما بالعشق، وإما بالشهوات الهائجة — تتغيّر صورة بدنه حتى يضطرب ويرتعد، ويصفر ويحمر، ويسمن ويلحقه ضروب التغيّر المشاهدة بالحس. »

وهذا كلام صريح واضح يبيّن لنا أجلى بيان ما بين الجسم والعقل من علاقة ثابتة، تظهر فى تأثر كل منهما بالآخر فى حالتى الصحة والمرض.

وهذا نص ثالث من كلام حجة الإسلام الغزالى :

---

(١) كتاب تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ص ١٤٥ . راجع أيضا ما نقلناه عن ابن سينا فى ص ٢٧ — ٢٨ من هذا الكتاب .

قال رحمه الله[1] :

« الخاصة الأولى (من خواص المعجزات والكرامات) فى قوة النفس فى جوهرها بحيث يؤثر فى هيولى العالم بإزالة صورة وإيجاد صورة ، بأن يؤثر فى استحالة غيرها[2] ويؤثر فى استحالة الهواء غيما ، ويحدث مطراً كالطوفان . . . أو ما يجرى مجرى ذلك ، وهو ممكن ، فقد ثبت فى الإلهيات أن الهيولى مطيعة للنفوس ، ومتأثرة بها ، وأن هذه الصور تتعاقب عليها من آثار النفوس الفلكية ، وهذه النفس الإنسانية من جوهر تلك النفوس وشديدة الشبه بها . فكذلك نفس الإنسان تؤثر فى هيولى العالم ، ولكن الغالب عليها أن يقتصر تأثيرها على عالمها الخاص ، وذلك بدنها . وكذلك إذا حصلت فى النفس صورة مكروهة استحال مزاج البدن ، وحدثت رطوبة العرق ، وإذا حدثت فى النفس صورة الغلبة حمى مزاج البدن واحمر الوجه ، وهذه الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة التى تحدث فى البدن من هذه التصورات ليست عن حرارة وبرودة ورطوبة ويبوسة أخرى ، بل عن مجرد التصور . »

٢ — علاج الأمراض الخلقية عند العرب

لم يقف الأمر بفلاسفة العرب وعلمائهم عند هذا الحد ، بل إنهم كما بحثوا فى أسباب أمراض الجسم والعقل ، وألموا بوسائل علاجها نظريا وعملياً ، كذلك نراهم قد أفاضوا وأجادوا فى دراسة أسباب الأمراض الخلقية ، وألموا بوسائل علاجها نظرياً وعمليا ، إلماماً لا يكاد يوجد له نظير .

وفى الحق إنهم سباقون فى هذا الميدان ، فإننا لا نعرف فيما نعرف أن أمة من

---

(١) مقاصد الفلاسفة ص ٣١٤ .

(٢) هكذا فى الأصل ، وهل الصواب : فى استحالتها إلى غيرها .

الأمم عنيت بالأخلاق والتربية الخلقية عناية الأمة العربية بها ، فقد وضعوا فيها المختصرات والمطولات، من الرسائل الموجزة ، والكتب الضخمة .

وكان فى مقدمة السباقين فى هذا الميدان ابن سينا ، وابن مسكويه ، والراغب الأصفهانى ، والإمام الغزالى ، ومحيي الدين بن عربى .

فلابن سينا رسالة قيمة فى علم الأخلاق، ولابن مسكويه كتابه المعروف « بتهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق » ، وللراغب الأصفهانى كتاب « الذريعة إلى مكارم الشريعة »، وللإمام الغزالى كتابه الجامع « إحياء علوم الدين »، ولمحيي الدين بن عربى كتاب ينسب إليه يسمى « تهذيب الأخلاق . »

وليس من المعقول أن آتى فى هذا المؤلف بمبادىء العرب فى الأخلاق ، وآرائهم فى التربية الخلقية ، ولا أن أحصى الأمراض الخلقية التى عرضوا لبحثها من جميع نواحيها ، فهذه موضوعات تستوعب مجلداً ضخماً على الأقل . فيكفى أن أقول: إن من الأمراض الخلقية التى أتوا فى بحثها بالعجب العجاب : الغضب ، والحقد ، والحسد ، والبخل ، والشره ، والرياء ، والكبر ، والخوف ، والعجب ، والغرور ، والجبن .

ويكاد يكون كل ما ذكروه فى علاج أمراض النفس طريفا ظريفا ، كافيا شافيا لغلة الباحث ، مشبعا لرغبة المحقق المدقق .

وإنك لتجد فيما كتب ابن مسكويه ، والغزالى ، وابن عربى فى هذا الموضوع مباحث قيمة يُخيل لمن يقرؤها أنه يقرأ بحوثا طريفة ، كتبت بأسلوب عصرى على دقيق ، وعبارات منقاة مصفاة .

وللاستدلال على ما أقول أضع بين يدى القارىء نماذج مما كتب بعض هؤلاء العلماء الأعلام فى مرض الغضب ، الذى أكثر المحدثون فيه المقال ، وبينوا أنه فى مقدمة الانفعالات المضرة بالجسم والعقل ، المبعدة للسلوك عن جادة الصواب :

يقول العلامة ابن مسكويه فى بيان تأثير الغضب فى الجسم والعقل :

« الغضب فى الحقيقة هو حركة للنفس يُحدث لها غليان دم القلب شهوة للانتقام، فإذا كانت هذه الحركة عنيفة أججت نار الغضب وأضرمتها ؛ فاحتدّ غليان دم القلب، وامتلأت الشرايين والدماغ دخانا مظلما مضطربا يسوء منه حال العقل ، ويضعف فعله، ويصير مَثَلُ الإنسان عند ذلك — على ما حكته الحكماء — مَثَلَ كهف ملئ حريقا ، وأُضْرِمَ ناراً ، فاختنق فيه اللهب والدخان ، وعلا التأجج والصوت المسمى وَحْى النار، فيصعب علاجه ، ويتعذر إطفاؤه ، ويصير كل ما يدنيه للإطفاء سببا لزيادته ، ومادة لقوته ؛ فلذلك يَعْمَى الإنسان عن الرشد ، ويَصَم عن الموعظة ، بل تصير المواعظ فى تلك الحال سببا للزيادة فى الغضب ، ومادة اللهب والتأجج ، وليس له فى تلك الحال حيلة ، وإنما يتفاوت الناس فى ذلك حسب المزاج[1] . »

ويقول فى بيان تأثير الغضب فى السلوك :

« فإن صاحب هذا الخلق الذى ذممناه تصدر عنه أفعال ردية كثيرة يجور فيها على نفسه ، ثم على إخوانه ، ثم على الأقرب فالأقرب من معامليه ، حتى ينتهى إلى عبيده وإلى حرمه ، فيكون عليهم سوط عذاب ، ولا يقيلهم عثرة ، ولا يرحم لهم عبرة — وإن كانوا برآء من الذنوب ، غير مجترمين ولا مكتسبين سوءاً ، بل يجرم عليهم، ويهيج من أدنى سبب يجد به طريقاً إليهم ، حتى يبسط لسانه ويده ، وهم لا يمتنعون منه ، ولا يتجاسرون على رده عن أنفسهم ، بل يذعنون له ، ويقرون بذنوب لم يقترفوها؛ استكفافا لشره ، وتسكينا لغضبه ، وهو مع ذلك مستمر على طريقته ؛ لا يكف يداً ولا لسانا . »

« وربما تجاوز فى هذه المعاملة الناس إلى البهائم التى لا تعقل، وإلى الأوانى التى

(١) تهذيب الأخلاق ص ١٦١ ، ١٦٢ .

لا تحس، فإن صاحب هذا الخلق الردىء ربما قام إلى الحمار والبرذون ، أو إلى الحمار[1] والعصفور ، فيتناولها بالضرر والمكروه ، وربما عض القفل إذا تعسر عليه ، وكسر الآنية التى لا يجد فيها طاعة لأمره ، وهذا النوع من رداءة الخلق مشهور فى كثير من الجهال ، يستعملونه فى الثوب ، والزجاج ، والحديد ، وسائر الآلات . »

« أما الملوك من هذه الطائفة فيغضبون على الهواء إذا هب مخالفا لهواهم، وعلى القلم إذا لم يجر على رضاهم ؛ فيسبون ذاك ، ويكسرون هذا . وكان بعض من تقدم عهده من الملوك يغضب على البحر إذا تأخرت سفينة فيه، لاضطرابه وحركة الأمواج حتى يهدده بطرح الجبال فيه وطمّه بها . وكان بعض السفهاء فى عصرنا يغضب على القمر، ويسبه ، ويهجوه بشعر له مشهور ، وذلك أنه كان يتأذى به إذا نام فيه . »

« وهـذه الأفعال كلها قبيحة ، وبعضها مع قبحه مضحك ، يُهزأ بصاحبه ، فكيف يمدح بالرجولية والشدّة وشرف النفس وعزتها ، وهى بالمذمة والفضيحة أولى منها بالمديح ؟ وأى حظ لها فى العزة والشدة ؟ ونحن نجدها فى النساء أكثر منها فى الرجال ، وفى المرضى أقوى منها فى الأصحاء ، ونجد الصبيان أسرع غضبا وضجراً من الرجال ، والشيوخ أكثر من الشبان . »

« ونجد رذيلة الغضب مع رذيلة الشره ؛ فإن الشره إذا تعذر عليه ما يشتهيه غضب ، وضجر على من يهيء له طعامه وشرابه، من نسائه ، وأولاده وخدمه، وسائر من يلابس أمره . والبخيل إذا فقد شيئاً من ماله تسرع بالغضب على أصدقائه ومخالطيه، وتوجهت تهمته إلى أهل الثقة من خدمه ومواليه . »

« وهؤلاء الطبقة لا يحصلون من أخلاقهم إلا على فقد الصديق ، وعدم النصيح، وعلى الذم السريع ، واللوم الوجيع. وهذه حال لا يتم معها غبطة ولا سرور ، وصاحبها

(١) هكذا فى الأصل ولعل الصواب « الحمام » .

أبداً محزون كئيب ، منغص بعيشه ، متبرم بأموره ، وهى حال الشقى المحروم[١] . »

« أما أسبابه المولدة له (أى للغضب) فهى العجب ، والافتخار ، والمراء واللجاج ، والمزاح ، والتيه ، والاستهزاء ، والغدر ، والضيم ، وطلب الأمور التى فيها لذة ، ويتنافس فيها الناس ، ويتحاسدون عليها ؛ وشهوة الانتقام غاية لجميعها ؛ لأنها بأجمعها تنتهى إليه . »

« ومن لواحقه الندامة ، وتوقع المجازاة بالعقاب عاجلا وآجلا ، وتغير المزاج (أى أحوال الجسم) وتعجل الألم ؛ وذلك أن الغضب جنون ساعة ، وربما أدى إلى التلف باختناق حرارة القلب فيه ، وربما كان سببا لأمراض صعبة ، مؤدية إلى التلف . »

« ثم من لواحقه مقت الأصدقاء ، وشماتة الأعداء ، واستهزاء الحساد الأرذال من الناس . ولكل واحد من هذه الأسباب علاج يبدأ به حتى يقلع من أصله . فإذا تقدمنا لحسم هذه الأسباب وإماطتها فقد أوهنا قوة الغضب وقطعنا مادتها ، وأمنا غائلتها[٢] . »

فهل بعد هذا لقائل مقال ، أو لسائل مجال ؟

وقد أسهب الإمام الغزالى فى بيان أسباب الغضب ونتائجه ، وطرائق علاجه ، مستدلا على مايقول بالقرآن الكريم ، والحديث الشريف ، وأقوال الصحابة والصالحين وأعمالهم . أما ما ذكر عن أسباب الغضب ونتائجه فيكاد يتفق مع ماذكره ابن مسكويه فيها ، ولا يمتاز عنه إلا بمزيد التفصيل ، وكثرة الاستشهاد .

---

(١) تهذيب الأخلاق ص ١٦٨ وما بعدها .

(٢) الكتاب نفسه ص ١٦٢ . وفيما يلى هذه الصفحة من الصفحات يبين ابن مسكويه علاج كل سبب من أسباب الغضب التى ذكرها ، وقد آثرت تركها اكتفاء بما أنقله عن الغزالى فى الموضوع نفسه ؛ لأنه أكمل وأوضح ، ومتفق إلى حد كبير مع آراء ابن مسكويه .

ويعجبنى قوله فى مقدمة البحث :

«أما بعـد : فإن الغضب شعلة نار ، اقتبست من نار الله الموقدة ، التى تطلع على الأفئدة . وإنها لمستكنة فى طى الفؤاد ، استكنان الحجر تحت الرماد ، ويستخرجها الكبر الدفين ، فى قلب كل جبار عنيد ، كاستخراج النار من الحديد ... ومن نتائج الغضب الحقد والحسد ، وربما هلك من هلك ، وفسد من فسد[1] . »

وقوله فى أثناء التحدث عن آثار الغضب :

« ومهما اشتدت نار الغضب ، وقوى اضطرامها أعمت صاحبها ، وأصمته عن كل موعظة ، فإذا وُعظ لم يسمع ، بل زاده ذلك غضبا . وإذا استضاء بنور عقله ، وراجع نفسه لم يقدر ؛ إذ ينطفئ نور العقل ، وينمحى فى الحال بدخان الغضب ؛ فإن معدن الفكر الدماغ . ويتصاعد عند شدة الغضب من غليان دم القلب دخان مظلم فى الدماغ ، يستولى على معادن الفكر ، وربما يتعدى إلى معادن الحس ، فتظلم عينه حتى لا يرى بعينه ، وتسود عليه الدنيا بأسرها . ويكون دماغه على مثال كهف اضطرمت فيه نار فاسود جوه ، وحمى مستقره ، وامتلأ بالدخان جوانبه ، وكان فيه سراج ضعيف فانمحى ، أو انطفأ نوره ، فلا تثبت فيه قدم ، ولا يسمع فيه كلام ، ولا ترى فيه صورة ، ولا يقدر على إطفائه لا من داخل ولا من خارج ، بل ينبغى أن يصير إلى أن يحترق جميع مايقبل الاحتراق . فكذلك يفعل الغضب بالقلب والدماغ . وربما تقوى نار الغضب ، فتفنى الرطوبة التى بها حياة القلب فيموت صاحبه غيظا ، كما تقوى النار فى الكهف فينشق ، وتنهد أعاليه على أسفله . »

« ومن آثار هـذا الغضب فى الظاهر تغير اللون ، وشدة الرعدة فى الأطراف ، وخروج الأفعال عن التريث والنظام ، واضطراب الحركة والكلام ، حتى يظهر الزبد

(١) الإحياء ج ٣ ص ١١٣ .

على الأشـداق ، وتحمر الأحداق ، وتتقلب المناخر ، وتستحيل الخلقة . ولو رأى الغضبان فى حالة غضبه قبح صورته، لسَكَّن غضبه؛ حياء من قبح صورته ، واستحالة خلقته . وقبح باطنه أعظم من قبح ظاهره ؛ فإن الظاهر عنوان الباطن ، وإنما قبح صورة الباطن أولا، ثم انتشر قبحها إلى الظاهر ثانيا ؛ فتغير الظاهر ثمرة تغيّر الباطن، فهذا أثره فى الجسد[1] . »

وبهـذا الأسلوب الطلى ، يمضى الإمام ؛ فيبين أثر الغضب فى اللسان والأعضاء والأطراف والقلب .

وأما ما ذكره فى وسائل علاج الغضب ، فليس له فيه نظير ؛ لذا أرى من المفيد أن أذكرها هنا موجزة ملخصة :

يرى رحمه الله أن علاج الغضب يكون قبل وقوعه بمعالجة أسبابه ، وبعد وقوعه بتهدئة النفس بالفكر والعمل .

أما أسبابه[2] المهيجة له فيرى أنها الزهو، والعجب، والمزاح ، والهزل، والهزء ، والتعيير ، والمماراة ، والمضادة ، والغدر ، وشدة الحرص على فضول المال والجاه .

وللتخلص من الغضب يجب إزالة هذه الأسباب بأضدادها : «فينبغى أن تميت الزهو بالتواضع ، وتميت العجب بمعرفتك بنفسك ... وتزيل الفخر بأنك من جنس غيرك؛ إذ الناس يجمعهم فى الانتساب أب واحد ... وإنما الفخر بالفضائل ... وأما المزاح فتزيله بالتشاغل بالمهمات الدينية التى تستوعب العمر وتفضل عنه ... وأما الهزل فتزيله بالجد فى طلب الفضائل والأخلاق الحسنة ، والعلوم الدينية . وأما الهزء فتزيله بالتكرم عن إيذاء الناس ، وصيانة النفس عن أن يستهزأ بك . وأما التعيير فبالحذر عن القول

---

(١) الكتاب نفسه ج ٣ ص ١١٦ .

(٢) راجع الإحياء ج ٣ ص ١١٩ وما بعدها .

القبيح ، وصيانة النفس عن مر الجواب . وأما شدة الحرص على مزايا العيش فتزال بالقناعة بقدر الضرورة طلباً لعز الاستغناء ، وترفعا عن ذل الحاجة . »

« وكل خلق من هذه الأخلاق ... يفتقر فى علاجه إلى رياضة وتحمل مشقة . وحاصل رياضتها يرجع إلى معرفة غوائلها ، لترغب النفس عنها ، وتنفر عن قبحها ، ثم المواظبة على مباشرة أضدادها مدة طويلة ؛ حتى تصير بالعادة مألوفة هينة على النفس ؛ فإذا انمحت عن النفس فقد زكت وتطهرت عن هذه الرذائل ، وتخلصت أيضا من الغضب الذى يتولد منها . »

ويقول رحمه الله فى معالجة الغضب بعد وقوعه :

« إنما يعالج الغضب عند هيجانه بمعجون العلم والعمل . » ويريد بالعلم التفكير فى الغضب وآثاره ، ويذكر له ست صور تتلخص فيما يأتى :

(١) أن يتفكر فى الأخبار الواردة فى فضل كظم الغيظ ، والعفو ، والحلم ، والاحتمال فيرغب فى ثوابه ، وينطفئ غيظه .

(٢) أن يخوف نفسه بعقاب الله ، وهو أن يقول : قدرة الله على أعظم من قدرتى على هذا الإنسان ؛ فلو أمضيت غضبى عليه ، لم آمن أن يمضى الله غضبه على يوم القيامة ، حين أصير أحوج ما أكون إلى العفو ؛ فقد قال تعالى فى بعض الكتب القديمة : « يا ابن آدم اذكرنى حين تغضب أذكرك حين أغضب فلا أمحقك فيمن أمحق . »

(٣) أن يحذر نفسه عاقبة العداوة والانتقام ، وتشمر العدو لمقابلته ، والسعى فى هدم أغراضه ، والشماتة بمصائبه ، وهو لا يخلو من المصائب . فيخوف نفسه بعواقب الغضب فى الدنيا إن كان لا يخاف من الآخرة .

(٤) أن يتفكر فى قبح صورته عند الغضب ، وفى مشابهة صاحبه للكلب الضارى ، والسبع العادى ، ومشابهة الحليم الهادى للأنبياء والأولياء والعلماء

والحكماء . ويخير نفسه بين أن يتشبه بالكلاب والسباع وأراذل الناس ، وبين أن يتشبه بالأنبياء والعلماء فى عادتهم؛ لتميل نفسه إلى حب الاقتداء بهؤلاء إن كان بقى معه مسكة من عقل .

(٥) أن يتفكر فى السبب الذى يدعوه إلى الانتقام ؛ فيحقر من شأنه ؛ فإذا قال له الشيطان إن سكوتك يحمل منك على العجز ، وصغر النفس ، والذل والمهانة ، فيقول لنفسه : «ما أعجبك ! أتأنفين من الاحتمال الآن ، ولا تأنفين من خزى يوم القيامة ؟ وتحذرين من أن تصغرى فى أعين الناس ، ولا تحذرين من أن تصغرى عندالله والملائكة والنبيين ؟ » فمهما كظم الغيظ فيجب أن يكظمه لله ، وذلك يعظمه عند الله ، فما له وللناس .

(٦) أن يعلم أن غضبه من تعجبه من جريان الشىء على وفق مراد الله لا على وفق مراده . فكيف يقول مرادى أولى من مراد الله ، ويوشك أن يكون غضب الله عليه أعظم من غضبه ؟ .

هذا هو العامل التفكيرى (أو الإدراكى كما يقول المحدثون من علماء النفس) من عاملى تسكين الغضب . أما العامل الثانى فهو العملى (أو النزوعى كما يقال الآن) ، وهذا يتضمن القول والفعل .

أما القول فأن تقول بلسانك : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » . أو تقول : « اللهم رب النبى محمد اغفرلى ذنبى ، وأذهب غيظ قلبى ، وأجرنى من مضلات الفتن . » هكذا أمر الرسول صلى الله عليه وسلم عائشة أن تقول عند الغضب .

والغرض من هذا ومايشبهه أن تنصرف النفس عند الغضب ، ويتغير مجرى تيار الفكر .

« فإن لم يتحقق ذلك فاجلس إن كنت قائما ، واضطجع إن كنت جالساً ، واقرب من الأرض التى منها خلقت ، لتعرف بذلك ذل نفسك ، واطلب بالجلوس والاضطجاع السكون ، فإن سبب الغضب الحرارة ، وسبب الحرارة الحركة ، فقد

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الغضب جمرة توقد فى القلب ، ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه ، وحمرة عينيه ، فإذا وجد أحدكم من ذلك شيئا فإن كان قائما فليجلس، وإن كان جالساً فلينم . »

هذا ابن الصحراء وربيب السماء يتكلم كأنما يتكلم بلسان العلم الحديث ـ أستغفر الله لقد قلبت الوضع ، فإنما العلم الحديث هو الذى يترجم عن تلك الحكمة المحمدية ، المنبعثة عن موهبة ربانية من لدن حكيم عليم .

إن هذا الذى أرشد إليه الرسول منذ نحو أربعة عشر قرنا هو مايسميه المحدثون[1] (تغيير الحالة الجسمية الظاهرية) . وحجتهم فى ذلك أن كل انفعال تصحبه حالات جسمانية ظاهرية وباطنية تلائمه ، وأن تغيير هذه الحالات قد يؤدى إلى ضعف الانفعال وإخماد ثورته .

أما تغيير الحالة الظاهرية فيدعو إليه الحديث الشريف دعوة صريحة كما ترى . وأما تغيير الحالة الباطنية فالغرض منه « تهدئة أجهزة الجسم الباطنية التى تكون فى حالة ثورة واضطراب عند الغضب . وفى ذلك يقول الإمام مستدلا بكلام الرسول :[2] « فإن لم يزل ذلك فليتوضأ بالماء البارد أو يغتسل، فإن النار لا يطفئها إلا الماء » ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : « إذا غضب أحدكم فليتوضأ بالماء ، فإنما الغضب من النار . »

إن هذا الكلام منطق جميل ، صادر عن نفس نبوية طاهرة ، أدبها ربها فأحسن تأديبها ، وأنطقها بالحق والحقيقة التى لم يتنبه لها العلم الأوربى الحديث إلا منذ نصف قرن من الزمان .

---

(١) راجع موضوع ضبط الانفعالات بقلم المؤلف فى كتاب «فى علم النفس» ج ٣ ص ٢٠٥ وما بعدها .

(٢) الإحياء ج ٣ ص ١١٥ .

وقد تنبه هـذا المؤلف الملهم إلى أن للغضب كغيره من الانفعالات اتجاهين : اتجاه نحو الشر ، وذلك حيث يضر ولا ينفع ، واتجاه نحو الخير حيث يرمى إلى الدفاع عن النفس والذود عن العرض ؛ فحقر من شأن الغضب إذا اتجه اتجاهاً مضراً ، وحمل عليه تلك الحملة الشعواء التى قصصنا عليك قصتها ، وحض على تشجيعه وإجابة داعيه إذا اتجه نحو الخير .

يقول رحمه الله فى هذا الموضوع[1] :

«ثم إن الناس فى هذه القوة على ثلاث درجات فى أول الفطرة : من التفريط والإفراط والاعتدال ؛ فأما التفريط فبفقد هذه القوة أو ضعفها وذلك مذموم ، وهو الذى يقال فيه إنه لا حمية له ، ولذلك قال الشافعى رحمه الله : «من استغضب ولم يغضب فهو حمار.» فمن فقد قوة الغضب والحمية أصلا فهو ناقص جداً . وقد وصف الله سبحانه أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم بالشدة والحمية فقال : « أشداء على الكفار رحماء بينهم » . وقال لنبيه الكريم : « جاهد الكفار والمنافقين، واغلظ عليهم » . وإنما الغلظة والشدة من آثار قوة الحمية وهو الغضب . »

« وأما الإفراط فهو أن تغلب هذه الصفة حتى تخرج عن سياسة العقل والدين وطاعته ، ولا يبقى للمرء معها بصيرة ونظر وفكرة ولا اختيار ، بل يصير فى صورة المضطر . » وهـذا هو المرض النفسانى الذى يجب أن يقضى عليه . فكلا الطرفين مذموم، والواجب اتباع جانب الاعتدال والتوسط .

ثم إنه يتحدث عن ثمرة الحمية الضعيفة فيقول[2] :

« وأما ثمرة الحمية الضعيفة فقلة الأنفة مما يؤنف منه: من التعرض للحرم والزوجة

---

(١) الإحياء ج ٣ ص ٢١٥ (٢) ص ١١٦ من الكتاب نفسه .

والأمة ، واحتمال الذل من الأخساء ، وصغر النفس ، والقماءة ، وهو أيضاً مذموم ؛ إذ من ثمراته عدم الغيرة على الحرم ، وهو خنوثة . »

«قال صلى الله عليه وسلم : « إن سعدا لغيور ، وأنا أغير من سعد ، وإن الله أغير منى . » وإنما خلقت الغيرة لحفظ الأنساب . ولو تسامح الناس بذلك لاختلطت الأنساب؛ ولذلك قيل: « كل أمة وضعت الغيرة فى رجالها وضعت الصيانة فى نسائها.»

« ومن ضعف الغضب الخور والسكوت عند مشاهدة المنكرات . وقد قال صلى الله عليه وسلم : « خير أمتى أحِدَّاؤها . » وقال تعالى : « ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله . » بل من فقد الغضب عجز عن رياضة نفسه ؛ إذ لا تتم الرياضة إلا بتسليط الغضب على الشهوة ؛ حتى يغضب على نفسه عند الميل إلى الشهوات الخسيسة . »

أيها القارئ ناشدتك الله والعلم والحق أن تقرأ كل ما كتبه حجة الإسلام الغزالى عن الغضب، وكظم الغيظ، والحلم ـ فى الجزء الثالث[1] من كتابه الجامع «إحياء علوم الدين»؛ فإنك واجد فيه ما يهديك إلى تهدئة غضبك، ولين قلبك إن لم يكن من جماد.

وإنى لواثق من أن قراءتك لهذه الفصول ستحملك على قراءة فصول أخرى فى علاج أمراض النفس ، دبجها يراع ذلك المؤلف البارع الذى بارك الله فى عمره ، فأخرج للعالم كنوز الإسلام ، وأباح لهم ذخائره ، وأبان لهم عن مآثره ، وكشف عن مزايا فضائله، حتى قال أحد الأوربيين: «لو كان الإسلام كما وصف الغزالى لكنت أول المسلمين . »

ونختتم هذا الفصل بإيراد بعض نصوص من رسالة[2] ابن عربى الممتعة عن مرض الغضب أيضاً :

---

(١) ص ١١٣ وما بعدها .

(٢) طبعت هذه الرسالة ضمن مجموعة الرسائل الكبرى من ص١٢٦ إلى ص ١٨٩ .

يقول رحمه الله فى بيان آثار الغضب[1] : —

« فأما النفس الغضبية فيشترك فيها أيضاً الإنسان وسائر الحيوان ، وهى التى يكون بها الغضب والجراءة ومحبة الغلبة . وهذه النفس أقوى من النفس الشهوانية ، وأضر لصاحبها إذا ملكته وانقاد لها ؛ فإن الإنسان إذا انقاد للنفس الغضبية كثر غضبه، وظهر خرقه ، واشتد حقده، وعدم حلمه ووقاره ، وقويت جراءته ، وأسرع عند الغضب إلى الانتقام والإيقاع بمغضبه ، والوثوب على خصومه ، فأسرف فى العقوبة ، وزاد فى التشفى ؛ فأكثر السب وأفحش فيه . فإذا استمرت هذه العادات بالإنسان ، كان بالسباع أشبه منه بالناس ، وربما حمل قوما على حمل السلاح ، وربما أقدموا على القتل والجراح ، وربما وثبوا بالسلاح على إخوانهم وأوليائهم وعبيدهم وخدمهم عند الغضب من اليسير من الأمور . وربما غضب مَن هذه حاله ولم يقدر على الانتقام من خصمه فيعود بالضرب والألم على نفسه : فمنهم من يلطم وجهه ، وينتف لحيته، ويعض يده ويسب نفسه، ويذكر عرضه . »

«وأيضاً فإن من تملكه النفس الغضبية يكون محباً للغلبة ، متوثباً على من آذاه ، مقدما على كل من ناواه ، طالباً للترؤس من غير وجهه . فإذا لم يتمكن من الرياسة من وجهها توصل إليها بالحيل الخبيثة، فاستعمل كل ما يمكنه من الشر . وهذه الأفعال تورط صاحبها ، وتوقعه فى المهاوى والمهالك ؛ فإن من وثب على الناس وثبوا عليه ، ومن خاصمهم خاصموه، ومن أقدم عليهم أقدموا عليه ، ومن تشرر لهم قصدوه بالشر . وربما تسفه الإنسان على خصمه وكان أسفه منه ، فإن ناله بسوء قابله بأكثر منه . وقد يغلب على من هذه حاله الحسد والحقد والقحة واللجاج والجور.»

وقد تحمل هؤلاء محبةُ الغلبة وطلبُ الرياسة على اكتساب الأموال من غير

(١) مجموعة الرسائل ص ١٣٥ وما بعدها .

وجهها وأخذها بالغصب والغلبة والظلم . وربما قتلوا على محبة الغلبة من يقاومهم ، وربما فعلوا ذلك من غير روية ، فيؤول الأمر بهم إلى البوار والاستئصال . »

ويمضى فى بيان مراتب النفس الغضبية فيقول[1] : ـ

« فأما من ساس نفسه الغضبية وأدبها وقمعها كان[2] رجلا حليما وقوراً عادلا محمود الطريقة ؛ فالعلة الموجبة لاختلاف عادات الناس فى غيظهم وسفاهة بعض هو اختلاف أحوال النفس الغضبية ؛ إذا كانت مذللة مقهورة كان صاحبها حليما وقوراً ، وإذا كانت مهملة مستولية على صاحبها كان صاحبها غضوباً سفيها، ظلوماً غشوماً . وإذا كانت متوسطة كان صاحبها متوسط الحال ، رتبته فى الحلم كرتبة النفس الغضبية، حتى تنقاده، فيملكها ويستعملها فى المواضع التى يجب استعمالها فيها . »

« فإن لهذه النفس فضائل محمودة ؛ وذلك لأن الأنفة من الأمور الدنية ، ومحبة الرياسة الحقيقية ، وطلب المراتب العالية ـ من الأخلاق المحمودة ، وهى من أفعال النفس الغضبية . فإذا ملك هذه النفس بالتهذيب والتأديب، واستعملها فى الأمور الجميلة، وكفها عن الأفعال المكروهة كان حسن الحال محمود الطريقة . »

ويقول رحمه الله فى علاج النفس الغضبية[3] : ـ

« فأما النفس الغضبية فإن الطريق فى قمعها وتذليلها هو أن يصرف الإنسان همه إلى أن يتفقد السفهاء الذين يسرع إليهم الغضب فى أوقات طيشهم وحدتهم وتسفههم على خصومهم، وعقوبتهم لخدمهم وعبيدهم ، فإنه يشاهد منهم منظراً شنيعاً، يأنف منه الخاص والعام . فإن تذكر ماشاهد فى أوقات غضبه، وعند جنايات خدمه

---

(١) المجموعة ص ١٣٦ ـ ١٣٧

(٢) هكذا فى الأصل ولعل الصواب (فيكون) .

(٣) المجموعة ص ١٦٥

وعبيده، وعند ذنوب إخوانه وأودائه، وفى جميع محاوراته ومعاملاته[١] ـ ما كان استقبحه من السفهاء انكسرت بذلك سورة غضبه، وأحجم عما يهم بالإقدام[٢] عليه من السب والوثوب، فإن لم يكف بالكلية أقصر، ولم ينته[٣] إلى غاية الفحش . »

ويقول فى موضع آخر[٤] : ـ

« وينبغى لمحب الكمال أن يشعر نفسه أن الغضبان بمنزلة البهائم؛ يفعل مايفعله من غير علم ولا روية ؛ فإذا جرى بينه وبين غيره محاورة أدت إلى أن يَغضب خصمُه ويسفه عليه، اعتقد فيه أنه فى تلك الحالة بمنزلة البهائم والسباع، فيمسك عن مقابلته، ويحجم عن الاقتصاص منه . ألا يعلم أن الكلب لو نبح عليه لم يكن يستحسن مقاتلته[٥] على نبحه ؟ وكذلك البهيمة لو رمحته لم يستحسن عقوبتها ؛ لأنها غير عالمة بما تصنعه ؟ إلاّ أن يكون جاهلا سفيهاً ؛ فإن من السفهاء من يغضب على البهيمة إذا رمحته ، ويوجعها ضرباً إذا آذته . وربما عثر السفيه فشتم موضع عثرته ، ورفصه برجله . فأما الحكيم الوقور فلا يستحسن شيئاً من ذلك . وإذا استشعر من خصمه أنه بمنزلة البهائم صار هذا الاستشعار منه طريقاً إلى ضبط النفس الغضبية وذمها . وإن آذاه مؤذٍ بغير سفه فيؤدى ذلك الأذى إلى حال تغضبه أنف أيضاً من الغضب، مع استشعاره أن الغضبان والبهيمة سواء ، فيعدل حينئذ إلى مقابلة مؤذيه بما يقتضيه الرأى من حيث لا يظهر فيه غضب ولا سفه . »

---

(١) هنا فى الأصل زيادة « فإنه إذا تذكر ما كان استقبحه من السفهاء » وهى زيادة لا داعى لها كما هو ظاهر . (٢) فى الأصل (من الإقدام) .

(٣) فى الأصل « ولو تنبه » ولا معنى له .

(٤) المجموعة ص ١٨٠ . (٥) فى الأصل مقابلته .

وبهذا الأسلوب الظريف الممتع يذكر ابن عربى فى عدة مواضع من رسالته وسائل أخرى لعلاج الغضب وحده ، ولعلاجه مع غيره من الرذائل ضمناً .

فمن أراد لذلك مزيد بيان فعليه أن يقرأ هذه الرسالة القيمة من أولها إلى آخرها؛ فهى — وإن كانت صغيرة الحجم — كبيرة القيمة عظيمة النفع .

ومن هـذا البيان يظهر لك أن الطريقة التى يتبعها ابن عربى فى علاج الأمراض الخلقية هى الطريقة المسماة : « تجديد التربية Re Education » التى سنتحدث عنها فيما يأتى .

الفصل الخامس

العلاج النفسانى

فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر

(١) فى أوربّة

لم تنشط حركة العلاج النفسانى بطرق علمية فى أوربا إلا فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، حيث ظهر فى ڤينا شخصية كبيرة كان لظهورها أثر بارز فى عالم الطب النفسانى، ذلكم هو الدكتور فرانز أنطون مِسْمَر[1]، الذى سميت باسمه «النظرية المسمرية Mesmerism» وتسمى أحياناً نظرية «المغناطيسية الحيوانية Animal Mgnatism.» ولا يتسع المقام لشرح هذه النظرية بالتفصيل . فيكفى أن أقول إن هذا الرجل كان يعتقد ـ كما اعتقد البابليون من قبل ـ أن الأجرام العلوية والكواكب تؤثر فى الإنسان وغيره من الكائنات السفلية، بقوة مغناطيسية تنبعث منها موجات متلاحقة ، ماتزال سائرة فى طريقها حتى تصل إلى الأجسام الأرضية ، ومنها الإنسان ، فتحتل جسمه ، وتؤثر فى حياته الجسمية والعقلية .

ثم إن مِسْمر يقرر أنه إذا كان من الممكن حبس هذه القوة المغناطيسية فى المريض، ومنعها من التشعع ، أو إذا أمكن توجيه موجات مغناطيسية قوية مصطنعة إلى جسمه ـ فإنه قد يبرأ مما عسى أن يصيبه من مرض.

---

(١) Franz Anton Mesmer

وبهذه الطريقة عالج مِسْمر بعض المرضى ، وكان منهم فروالين أوسترلاين Osterline ، التى شفاها من مرض عصبى حاد كان يصحبه قىء ، وإغماء ، وخبل ، وضيق فى التنفس ، وألم فى الأذن ، وشلل .

وكان مِسْمر يستخدم فى علاجه قضباناً من الحديد الممغْطس يلمس بها جوانب المريض ، ثم استخدم بعد ذلك أنامله للغرض نفسه .

وقد وصلت أخبار مِسْمر إلى لويس الخامس عشر ، فاستدعاه إلى باريس حيث حظى بشهرة عظيمة ، وتعلقت به الجماهير ، وفتنوا به ، وآمنوا بطريقته . ولم ينكر عليه أمره إلا العلماء الذين تشبعوا بروح المادية ، ولم يقيموا لنظرية مِسْمر وزناً . وقد ظهر أمر مِسْمر رغم معارضة العلماء والفلاسفة .

وفى سنة ١٨١٤ م قدم من الهند إلى باريس راهب برتقالى يسمى أبى فاريا Abbé Faria ، وتولى بهامهنة المعالجة بالتنويم الصناعى ، وأخذ يبهر الناس بصناعته ، وينوِّم مَن يتقدم منهم إليه بكلمةواحدة يكرر النطق بها هى: دورى Dormez ؛ يعنى « نَمْ » . ومع ذلك لم يُعْنَ الناس بأبى فاريا عنايتهم بأمر مسمر .

وفى سنة ١٨٤١ م اتجه البحث اتجاهاً جديداً على يد الدكتور بريد Braid الإنجليزى، أحد أطباء منشستر، الذى وصل ـ بعدمباحث متعددة، ودراسة عميقة دقيقة لطريقتى مسمر وفاريا ـ إلى أنه ليس من الضرورى أن يستعمل الطبيب المغناطيس، بل يكفى أن ينوِّم المريض بأى وسيلة من الوسائل. وقد وجد أن حصر انتباه المريض بالنظر إلى جسم مضىء مثلاً مدة طويلة يوصل إلى هذه النتيجة . وقد سمى بريد هذه العملية Hypnosis أى التنويم. وهى مشتقة من كلمة يونانية هى Hypnos أى النوم. وقد عالج بريد بهذه الطريقة كثيراً من الأمراض الجثمانية وغيرها كالرَّثية ، والشلل، والصرع، والتهاب العمود الفقرى ، والصمم ، وقصر النظر ، وبعض أمراض القلب.

وقد قرر بعد طول تجارب أن التنويم ليس إلا نوعاً من أنواع الإيحاء ، وبذلك يكون قد أثبت تأثير الإيحاء بعد التنويم فى معالجة الأمراض العقلية والجثمانية .

وقد بلغت صناعة التنويم المغناطيسى أوج عظمتها على يد الدكتور شاركوت Charcot ،الطبيب الفرنسى، الذى عارض بريد ، وقرر أن التنويم فى الواقع تأثير مباشر فى الأعصاب ، وأن النوم حينئذ حالة من حالات الصرع ، فهو حالة مادية ليس للناحية العقلية فيها شأن يذكر .

وظهرت بعد ذلك مدرسة نانسى بفرنسا ، وعلى رأسها ليوبولت وبيرنهايم Liébeaulte and Bernhiem فأقرت بعد البحث رأى بريد . ومن ذلك الحين كانت طريقة العلاج بالتنويم طريقة علمية مبنية على أساس نفسى هو : التأثير بالإيحاء أو الاستهواء. ويعزى إلى بيرنهايم أنه أول من لفت الأنظار إلى قوة الإيحاء الذاتى قياساً على قوة الإيحاء الخارجى ، وأنه صرح بأن من الممكن علاج جميع أمراض الإنسان بالإيحاء الذاتى أو الخارجى .

جاء بعد ذلك دى بوا DeBios السويسرى ، فجعل العلاج النفسانى بالإيحاء والتضريب أوالتحريض صناعة يعتد بها ، ونصح للأطباء أن يدرسوا علم النفس ، وأن يطبقوا ما يمكن تطبيقه من مبادئه فى أثناء علاج المرضى .

وظهر فى فرنسا فى عصرنا الحالى مسيو إميل كوى Emile Coué ، الذى بذل جهوداً جبارة فى إذاعة مذهبه ، ويتلخص فى قوة تأثير الإيحاء الذاتى أو الخارجى فى السلوك . وقد عالج بنفسه كثيراً من المرضى بالشلل ، والرئية ، وضيق التنفس . وستتاح لى فرصة أخرى للكلام على هذه الطريقة .

(ب) فى أمريكا

علاج العلماء المسيحيين

نترك أوربة مؤقتاً ونذهب إلى أمريكا، فنجد حركة علاجية نشيطة هى حركة : «العلم المسيحى Christian Science » التى يسمى زعماؤها « العلماء المسيحيين Christian Scientists »

ويرجع الفضل فى نشأة هذه الحركة ونموها إلى السيدة إدى Eddy ، التى يمدنا تاريخ حياتها بمادة قيمة تفيد المعنيّين بعلم النفس والعلاج النفسانى. وقد كانت إصابتها بمرض عصبى مبدأ لتدوين تلك الصفحات المجيدة التى سطرتها فى تاريخ الديانة المسيحية ، وتاريخ العلاج النفسانى معاً .

كان مولد هذه الشخصية البارزة، التى قدر لها أن تكون زعيمة فرقة دينية مسيحية ذات شأن ، فى سنة ١٨٢١ ـ أى منذ قرن وربع قرن ـ فى مزرعة وضيعة من مزرعات (نيوهامبشير[1]) بأمريكا ، بلد العجائب والمفاجآت . وكانت منذ فجر حياتها فريسة لمرض عصبى وبيل ، فكثيراً ما كان يعتريها صرع عنيف ، يعقبه ارتخاء فى الأعصاب، أو حالة غيبوبة تشبه حالة النوم . ولما ناهزت الخامسة والثلاثين من عمرها زلقت رجلها على الجليد فى فصل الشتاء ، فسقطت على الأرض مغشياً عليها ، فأصيبت برضوض فى ساقها ، وانتهت إصابتها إلى مرض يسمى: «باراپليجيا Paraplegia » وهو شلل موضعى فى العمود الفقرى . وقد حاول الأطباء أن يعالجوها فلم يفلحوا ، وبقيت طريحة فراشها عدة سنوات فى حالة مرض ويأس .

ولما بلغت الأربعين حدث حادث غيّر مجرى حياتها ، وفى الوقت نفسه غيّر كيانها

---

(١) New Hampshire

العقلى تغييراً تامًا ؛ ذلك هو : أن الطبيب كويمبى Quimby أفلح فى علاجها علاجًا نفسيًا سريعًا هينًا ذهب بمرضها ، وكان هـذا العلاج مبدأ تلك الحركة العلاجية الدينية التى حمل لواءها رجال العلم المسيحى .

ومن غريب ما يروى عن (كويمبى) أنه كان فى أول أمره صانع ساعات، عُرِف بحدَّة الذكاء ، وقوة الملاحظة ، واشترك فى جلسات تنويم مغناطيسى كان يتزعمها منوّم فرنسى فى مدينة (پورت لاند)[1] . ثم أخذ (كويمبى) نفسه يمارس التنويم المغناطيسى، غير أنه لاحظ فى أثناء تلك الجلسات، وعند ممارسته التنويم، أن النصائح التى كان يلقيها المنوّم على النائم المريض كانت مقصورة على غرس فكرة الشفاء فى نفس المريض ، وأن هـذه الفكرة وحدها كفيلة بسير المريض نحو الشفاء . أما ما كان يتناول من أدوية فعديم القيمة .

كانت هـذه الملاحظة سبباً فى أن يغيّر (كويمبى) طريقته فى المعالجة ، وأن يعنى أولاً وقبل كل شىء بأن يبث فى روح المريض الثقة بالنفس ، كى يقتلع من ذهنه آثار الخوف من المرض ، وعندذلك نبتت فكرة «العلاج النفسانى» أى العلاج بالإيحاء المجرد بدون أدوية .

وقد أحدثت هذه الفكرة فى نفس السيدة (إيدى) أعمق الآثار، فتحمست لها ، وقررت أن تعمل مع الدكتور كويمبى ، وتظل أمينـة سر له . ثم عكفت على دراسة بعض مسودات مشوّهة ، كان كويمبى قد دوّنها فى موضوعى الدين والعلاج النفسانى.

وبعد موت ذلك الزعيم فجأة ، استولت على مذكراته ، وشرعت فى تبييضها ، والتعليق عليها ، وأذاعت فى الناس فى كل مكان أنها تحمل رسالة عظيمة تزمع أن تؤديها للعالم .

---

(١) Portland

ولما لم تصادف نجاحًا فى ممارسة العلاج النفسانى الذى رفعت من شأنه رأت أن تكتفى بشرح نظريات كويمى ، وتترك تطبيقها عملياً لغيرها . وبعد تحمل كثير من ألوان الشقاء والمحنة نجحت فى تأسيس مدرسة طبية فى بلدتى لين Lyn وماس Mass، ثم فى بوسطن Boston. وكانت تتقاضى أجوراً باهظة على مهنتها التى قصدت منها إلى جعل تلاميذها ذوى قدرات ممتازة على العلاج ، وادعت لنفسها الحق فى السيطرة على أرباحهم مدى الحياة . وقد جنت أموالاً كثيرة من مدرسة بوسطن ، ومن علاج المرضى ، ومن ريع الكتب والمجلات التى كان تلاميذها يشرفون على إصدارها . وكان من أمرها أنها كانت «تعالج الغائبين» بطريقة ساذجة هى: التفكير فى شفائهم من أمراضهم .

وقد تمكنت مؤسسة مذهب « العلم المسيحى » من التغلب على ما قام فى طريقها من صعاب جمة، بفضل ماأوتيت من نشاط ، وثقة بالنفس ، وإيمان ثابت لايتزعزع. وانتهى بها الأمر إلى أن قامت بحركة جديدة هى المسماة «بحركة الفكر الحديث The new thought movement.» وشرحت السيدة (إيدى) مذهبها ـ الذى نال ذلك الحظ الوافر من الانتشار ـ فى كتابها المسمى: «العلم والصحة Science and Health» الذى طبع سنة ١٨٧٥ ، ثم أعيد طبعه أكثر من مائتى مرة . وتقول السيدة إيدى إن كتابها هذا الذى ألفته فى العلم الحديث هو الحق المطلق ، وإنه هو روح الفلسفة الربانية التى لافلسفة غيرها ، وزعمت أنه «حينما يتكلم الرب فإنها تستمع لقوله» ؛ تريد بذلك أنها ملهمة فيما تقول .

ويقول جانيه فى نقد هذا الكتاب : إنه كتاب يصعب على الإنسان أن يقرأه ويفهمه ؛ لأن أسلوبه غريب غامض ، لا يتضمن إلا بعض مبادئ فلسفية عادية ساذجة ، شرحت مراراً وتكراراً، بعبارات مليئة بالاستعارات والمجازات .

وقد خصص الجزء الأكبر من الكتاب لشرح فلسفة جريئة من النوع الروحانى، تتلخص فى ثلاث مبادئ هى :

(١) الله هو الكل فى الكل ، وهو خير بطبيعته .

(٢) الخير الأسمى فى هذا العالم هو العقل .

(٣) متى ثبت أن الله والروح هما الكل فى الكل ثبت أن المادة هى لا شىء ، أى هى العدم .

هذا وإن الناحية السلبية من فلسفة «إبدى» أهم وأبعد مدى من الناحية الإيجابية؛ يظهر ذلك من مقتها الشديد لفكرة المادة، التى لا تنفك تقرر أنها عدم محض فلا وجود لها ؛ ولذا لا تحاول أن تشرحها ، بل تعمل على طمس معالمها ، وإخراجها من دائرة الفكر .

وهناك أشياء كثيرة أخرى مثلها مثل المادة فى العدمية ؛ فالإثم والفقر والمرض تثير كلها ضجر هذه المصلحة الدينية ؛ ولذا لا تحاول التعرض لها بشرح أو تعليل ، بل تعمل على إبعادها من دائرة الشعور . ولا تكتفى هذه السيدة بإنكار وجود هذه الأشياء ، بل تحاول أن تبيّن السر فى اعتقاد الناس بوجودها ، فتعزو ذلك إلى الخطأ فى الإدراك ، أو إلى سلوك العقل الإنسانى مسلكاً معوجًّا شاذاً .

يقول بعض الناس إن الورم مثلاً مؤلم ، ولكن هذا خطأ سخيف لا مسوغ له ، لأن المادة بدون العقل ليست مؤلمة ، فالواقع أن التورم بما يصحبه من التهاب وتضخم فى الجسم ينشأ عنه اعتقاد بوجود الألم ؛ فلو ذهب هذا الاعتقاد من النفس لذهب معه الألم ، وبرئ منه الإنسان ؛ فليست المادة هى التى تصاب بالألم ، وإنما الذى يصاب بالألم هو العقل المريض .

ولا يدل الاعتقاد العالمى العام فى الموت على شىء حقيقى ، فسنعلم فى نهاية الأمر أن الموت ليس إلا حلماً خالداً يأتى فى عالم الظلمات ، ويختفى فى عالم النور .

والنتيجة الحتمية لهذا المذهب أن علاج المرض سهل هيّن ، فليس هناك داع إلى تشخيص المرض؛ لأن طريقة العلاج واحدة ـ مهما يكن نوع المرض أو سببه . وليست هناك حاجة إلى تشريح الجسم ، أو تناول أدوية مادية ، فهذه عديمة القيمة ، ولا يستطيع العقل السليم إدراك فائدتها. وليس هناك داع إلى اتخاذ الاحتياطات الصحية، وللمريض أن يأكل ما يشاء ، ويشرب ما يريد ـ ولو كان مصاباً بسوء الهضم ؛ فإن الله لم يجعل للإنسان سلطاناً على لحم البحر فقط ، بل جعل له سلطاناً على لحم معدته أيضاً .

ولكى نبث فى روح المريض والطبيب معاً الثقة بالنفس ، يجب أن نعمل على أن نجتث من أعماق نفسيهما جذور الاعتقاد بوجود المرض . إن الأطباء ينكرون على الناس الانغماس فى خيالاتهم وأوهامهم ، ونحن نربى الأطفال على عدم الاعتقاد بالعفاريت والجان ، فلماذا نقول بوجود الأمراض التى وجودها أدخل فى باب الوهم والخيال ؟

لذلك كله يجب أن نقضى على هـذه العلاجات الطبية المادية العديمة الفائدة ، التى لا تستند إلى تفكير سليم ، وأن نقضى على تلك الخرافات والمخاوف والأوهام ، وأن نغرس فى نفوس الناس بدلاً منها عقائد صحية إيجابية ، أساسها أن العقل هو المسيطر على الجسم ، وأن له عليه السلطان المطلق التام ، وأن نعلم حق العلم أن هـذه العقيدة هى الأداة الفعالة التى لها أعظم الآثار فى العلاج .

هذه هى المبادئ التى أذاعها هؤلاء العلماء ، وأقاموا على أساسها مذهباً دينياً ، رفيع البناء ، ثابت الأركان ، وأدخلوا بها السرور على ملايين من الناس .

وعلى الرغم من هذا كله لم يسلم هذا المذهب من النقد المر ، والتجريح الصريح. يقول الدكتور جانيه : « مما لا شك فيه أن «الأطباء العلماء» لم يكونوا يفهمون حق الفهم معنى كلمة من الكلام الذى كانوا يتشدقون به ؛ مثلهم فى ذلك مثل هؤلاء المرضى المساكين الذين تولوا علاجهم . »

وخلاصة القول :

(١) أن مذهب العلم المسيحى ليس مذهبًا فلسفيًا بمعنى الكلمة ، ولكنه طريقة علاجية .

(٢) أن التفكير فى علاج المرضى وشفائهم كان أهم ما عُنيت به السيدة «إيدى» صاحبة هذا المذهب .

(٣) أنها قد اهتدت آخر الأمر إلى اليقين بأن عقيدة المريض تؤثر فى سير مرضه .

(٤) أنها حاولت فيما بعد أن تقيم عقيدتها هذه على الدليل المنطقى الفلسفى لتثبت دعائمه ، وتقوى روحها ، وتقوى فى غيرها من أتباعها روح الثقة بالنفس ، وعدم الاعتداء بالشر . ولكنها سلكت مسلكاً وعراً مليئاً بالأخطار ، لم تنج منه إلا بعد أن تعثرت عدة مرات، وبذلت جهوداً جبارة فى مقاومة ماصادفها من صعوبات متنوعة.

(٥) أن مردّ هذه الفكرة إلى تجارب كويمبى الذى عالج السيدة «إيدى» ، وشرح لها مذهبه ، وترك لها مذكراته التى ورد فيها « إنى أتمسك بإنكار المرض وإخراجه من عالم الحقيقة ، وأقرر أن القول بوجوده خطأ محض ، مثله فى ذلك مثل الأساطير الخرافية التى يتناقلها الناس من جيل إلى جيل ، حتى تصبح جزءاً لا يتجزأ من عقائدهم الحيوية .

(٦) أن كويمبى يبنى إنكاره لوجود المرض على أن للعقل السلطان المطلق على كل صورة من صور المادة، التى ليس لها فى نظره إلا وجود وهمى وضيع المنزلة .

(٧) أن كويمي أنشأ مذهباً فلسفياً روحانيا Idealistic مبهما هوأشبه ما يكون بالنظام الفلسفى الذى وضعته تلميذته .

ونضيف إلى ذلك كله أن كويمي أخذ بعض مبادئه ومعارفه عن المنوم الفرنسى بوين Poyen الذى نقل مذهب دلور إلى أمريكا .

وأن مذهب العلم المسيحى قد تأثر إلى حد ما بمذهب المغناطيسية الحيوانية فيما ذكر «العلماء» عن العقل الباطن ، وعن علاقة الطبيب بالمريض ، وعن أثر قوة الإرادة فى العلاج ، وعن نقل الأفكار من الطبيب إلى المريض ، وفيما انطوى عليه هذا المذهب من آراء خاصة بتشخيص المرض « من بُعْدٍ » وعلاج الغائب .

أما ما يلاحظ من حملة هؤلاء العلماء على المغناطيسيين فلا قيمة له، ولا يقدح فى وجود علاقة وثيقة بين المذهبين ؛ فضلا عن أنه نزاع عائلى داخلى ؛ فمن المحقق ـ كما يقول جانيه ـ أن مذهب العلم المسيحى فى أمريكا وليد مذهب المغناطيسية والتنويم المغناطيسى؛ يدلنا على ذلك تاريخ حياة كويمي العلاجية التى ذكرناها فيما مضى .

(ح) العلاج الجثمانى أو الطبيعى

فى الوقت الذى ينادى فيه العلماء المسيحيون بتجنب تناول الأدوية المادية ، وبعلاج المرضى بوسائل نفسية أو روحانية بحتة ، نجد فريقاً من الأطباء يذهبون إلى الطرف الآخر ، فيعالجون الأمراض العقلية والشذوذ الخلقى بمواد كيمائية أو عقاقير طبية يصفونها للمريض؛ معتقدين أنها تؤثر فى الجسم أولا، وتشفيه من علله وأمراضه، ثم يتعدى تأثيرها إلى العقل فيزول ما به من أمراض . وإنهم ليستندون فى عقيدتهم هذه إلى أدلة منطقية لها ما يبررها . يقول هؤلاء إن الاضطرابات العقلية على اختلاف أنواعها ، ما هى إلا اضطرابات فى سلوك الإنسان ، وما سلوك الإنسان إلا مجموعة

العمليات التى تصدر منه أو فيه ، وبعض هذه العمليات تقوم بها الأطراف أو الفم أو اللسان ، وبعضها تقوم به الأجهزة الباطنية ، فكيف يمكن أن نعترف بأن العمليات الخارجية، التى تصدر عن المصاب بمرض عقلى نتيجة لحركة أطرافه أو لسانه أو شفتيه ـ مستقلة استقلالا تاماً عن العمليات الباطنية التى تحدث فى الجسم نفسه ـ ذلك الجسم الذى يبحث فى وظائفه علم وظائف الأعضاء ؟

ثم أليس النجاح فى ملاءمة العمليات الخارجية للبيئة الخارجية ، ضرورياً للحصول على السعادة فى الحياة ؟ وأليس هذا النجاح متوقفا على وجود تلاؤم وانسجام بين العمليات الخارجية أو السلوك الخارجى ، وبين العمليات الباطنية التى تقوم بها الأجهزة الداخلية ؟ وأليست الصحة العقلية متوقفة على هذين الأمرين ؛ أى على ملاءمة العمليات الخارجية للبيئة الخارجية ، وعلى انسجام الأعمال الخارجية مع الأعمال الباطنية ؟

فالخلل فى السلوك الخارجى معناه فى النهاية خلل فى الأجهزة الباطنية ، فإذا رأينا شذوذاً فى السلوك علمنا أن ذلك يرجع إلى نقص أو خطأ فى الحياة الجسمية . ولا بد من أن نعد المجنون مثلا مصابا بمرض جثمانى مهما يكن مظهره ، ومنظره الصحى . وإذا رأينا من يصاب بمرض عقلى منذ عهد البلوغ أو المراهقة ، ويحتفظ بمظهره الصحى إلى عهد الشيخوخة، فلا بد أن نجزم بأن هذه مشكلة غامضة يعجزنا عن حلها جهلنا بمدى حياة الإنسان العادية ، وبالأسباب التى تقصر العمر العادى ، وتقلل من النشاط الحيوى . فمن يدرى أن هذا الذى تظهر عليه علامة الصحة الجسمية ـ مع مرضه العقلى ـ غير مصاب بمرض جسمى مجهول ، بحيث لو برئ منه لكان منظره الخارجى أبهى وأجمل، ولعاش مدة أطول ، ولاستمتع بنشاط حيوى أعظم وأغزر!؟ ومن يدرى؟ فلعلنا نخدع أنفسنا حينما ننظر إلى مايستمتع به المجانين أو مرضى العقول من صحة جيدة نظرة إعجاب !

هذه خلاصة مذهب السلوكيين فى علاج الأمراض العقلية . ومن الحق أن نقول إنهم منطقيون، حين يبنون رأيهم فى هذا العلاج على مذهبهم السلوكى ؛ فهم لا يعترفون بوجود أمراض عقلية بالمعنى الذى نفهمه ، وإنما يعترفون بوجود خلل أو شذوذ فى السلوك الذى يهتمون بدراسته ، ولا يأبهون بدراسة عقل أو شعور .

فما نسميه نحن مرضا عقليا يسمونه شذوذاً فى السلوك ، ويقولون إنه راجع إلى خلل أو اضطراب فى الحالة الجسمية الباطنية ، فإذا عولجت هـذه الحالة الجثمانية الباطنية علاجا ناجحا صح الجسم ، وذهب الشذوذ .

على أننا يمكن أن نبرر هذا المذهب المادى من جهة أخرى فنقول :

من الثابت الذى لا جدال فيه أن الجسم والعقل متصلان تمام الاتصال ، يؤثر كل منهما فى الآخر بالصحة أو المرض. ومن الثابت أيضا أن العلماء المسيحيين ومن إليهم قد نجحوا إلى حد ما فى علاج أمراض الجسم بوساطة العقل ؛ أى أن وسيلتهم فى العلاج هى التأثير فى الجسم بوساطة العقل . وإذا ثبت هـذا وذاك فلم لا يمكن العكس وهو أن نعالج الأمراض العقلية بوساطة الجسم ؟

الحق أن هذا دليل مقبول تؤيده التجارب الحديثة ، وتؤيده تجربة ابن سينا فى شفاء المصاب بالملانخوليا التى سبق شرحها ، بل يؤيده ما قيل منذ القدم من أن العقل السليم فى الجسم السليم .

فمن المرجح (على الأقل) أن جميع الأمراض الجثمانية ـ مهما يكن نوعها ـ لا بد أن يكون لها أثر فى الحياة العقلية التى لا تكون كاملة إلا حين يؤدى الجسم وظائفه الحيوية على الوجه الأكمل .

وكثيراً ما يطبق الأطباء هـذا المبدأ ، فيبحثون فى جسم المصاب بمرض عقلى، لعلهم يجدون فيه خللا أو عطباً أدى إلى ما يظهر من شذوذ فى السلوك أو التفكير .

وقد وجدوا بالبحث أن كثيراً من مرضى العقول يشكون من اضطراب الهضم وسوء عملية التغذية ، وأن فريقا آخر لا يتناولون طعاما كافيا ، وأن فريقا ثالثا يميلون إلى البطنة ؛ فمن الضرورى فى معالجة هؤلاء أن يوضع لهم نظام خاص للطعام والشراب .

وقد اختبرت حال الدورة الدموية فوجد أن الإصابة بمرض عقلى يصحبها ازدياد فى النبض ، وتغير فى ضغط الدم ، وارتفاع أوانخفاض فى درجة الحرارة فى بعض أجزاء الجسم ؛ يدل عليه احمرار بعض الأجزاء أو اصفرارها . فإذا نظمت الدورة الدموية ، ونظم توزيع الدم على جميع أجزاء الجسم، ساعد ذلك على التخفيف من حدة المرض العقلى .

ومما لا يكاد يشك فيه الآن تأثير إفرازات الغدد الصماء فى الحالات النفسية ، فقد وجد أن تغير هذه الإفرازات أو إحداث اضطراب فيها بالزيادة أو النقص يصحبه تغير ظاهر فى الحياة العقلية، وبالعكس؛ فقدوجد أن الإصابات العقلية يصحبها تغيرات فى هذه الإفرازات تشبه ما يحدث لها حينما تكون هذه الغدد فى حالة عطب أو اضطراب. والنتيجة الحتمية لذلك أنه من الممكن أن يساعد تعديل الإفرازات الغدية على شفاء مرضى العقول .

ويكاد يكون من المجمع عليه بين الأطباء أن تخدير الأعضاء الخارجية أو الباطنية أو تسممها يؤدى إلى اضطراب الحياة العقلية . ويميل فريق منهم إلى القول بأن كثيراً من الأمراض العصبية يرجع إلى تسمم باطنى ذاتى ينشأ عن اضطرابات فى المعدة أو الأمعاء ، وأن من وسائل علاج المريض القضاء على هذا التسمم بأى وسيلة طبية. كل هذه الأبحاث الفسيولوجية تؤيد ما ذكرناه آنفا ، وسنذكره فيما يأتى من توثق الصلة بين الجسم والعقل .

الفصل السادس

العلاج النفسانى فى القرن العشرين

(١) تمهيد

لقد نهض العلاج النفسانى فى هذا القرن نهضة مباركة على أيدى طائفة من مهرة الأطباء ، وفى مقدمتهم (مورتن برنس) و (جانيه) ثم فرويد وآدلر ، ويونج .

لقد أدرك فرويد ومن نحا نحوه أن هناك ناحية من نواحى العقل لا يشعر بها الإنسان يسمونها بالعقل الباطن ، الذى جعلوه مأوى الرغبات والنزعات والأفكار التى لم تسمح لها الظروف الاجتماعية وغيرها بالتحقق . وقد دلتهم التجارب أن كبت هذه الرغبات وانحدارها إلى أعماق العقل الباطن هو السبب فى معظم الأمراض العقلية ، وكثير من الأمراض الجثمانية أو العصبية . وقد قرروا بعد البحث الدقيق أن سبب شفاء المريض من هذه الأمراض بالتنويم المغناطيسى أو الصناعى يرجع فى الواقع إلى إخراج تلك الذكريات أو الرغبات أو الانفعالات القديمة المكبوتة فى غياهب العقل الباطن إلى دائرة الشعور ، أو ما يسمى العقل الظاهر . وقد وجدوا أن كثيراً من هذه المخاوف والنزعات المكبوتة يرجع منشؤه إلى عهد الطفولة ، وأنه من الممكن العلم بها وإخراجها من العقل الباطن إلى حيز العقل الظاهر بطريق التحليل النفسانى. وأن هناك ثلاث وسائل أساسية لذلك هى : (١) تداعى المعانى المطلق (٢) تداعى المعانى المقيد (٣) تأويل أحلام المريض أحلام نوم كانت أم أحلام يقظة ، يضاف إلى ذلك دراسة أمور ثانوية ؛ كهفوات اللسان والقلم أو شذوذ السلوك .

ولما للتحليل النفسانى من الأهمية البالغة فى العلاج النفسانى أرى لزاماً على أن أبين فيما يلى نشأة هذه الطريقة وتطورها مع شىء من التفصيل فأقول :

لقد خطا علم التحليل النفسانى منذ مستهل القرن العشرين خطوات فسيحة تحت لواء (فرويد ، وآدلر ، ويونج) ، وقد كان لهؤلاء وأتباعهم الفضل فى مقاومة الاتجاه الجثمانى فى المباحث النفسية ، وفى العلاج النفسانى ، ذلك الاتجاه الذى قوى وشاع أمره فى القرن التاسع عشر ، والذى تحدثنا عنه فى الفصل السابق .

وكان لحركة هؤلاء غرضان هامان مترابطان هما :

(١) البحث فى الحياة العقلية على أساس نفسى لا على أساس جثمانى .

(٢) العلاج النفسانى بوساطة العقل والعمليات العقلية ذاتها ، لا بوسائل مادية خارجة عن كيان النفس .

رأى زعماء هذه الحركة من الأطباء أن بعض اضطرابات عقلية ، وأنواعا من الشذوذ العقلى أو الخلق لا يمكن رجعها إلى خلل فى المخ أو الجهاز العصبى بوجه عام ، فقرروا أن الاضطراب أو الشذوذ فى الحياة العقلية يرجع إلى العقل نفسه ، أى إلى العادات التفكيرية والسلوكية المعيبة ، أى إلى ضعف الإرادة ، أو إلى السرعة فى تقبل الإيحاء ، أو عدم التوازن الانفعالى الوجدانى . وعلى هذا الأساس قامت هذه الحركة ونهضت ، وظهر أثرها فى عالم العلاج النفسانى .

ويتصل تاريخ هذه الحركة بتاريخ العلاج بالتنويم المغناطيسى الذى أذاع أمره مسمر سنة ١٧٨٠ م ، وسار فى طريقه إلى أن ظهرت مدرسة باريس بزعامة شاركوت ، ومدرسة نانسى بشمالى فرنسا ، فنشب بين المدرستين خلاف فى مدى الاعتماد على التنويم المغناطيسى فى العلاج النفسانى .

وقد ظل الخلاف بين المدرستين ، واشتد الصراع بينهما ردحاً من الزمن ، وفى

أثناء ذلك ظهر أمر (مورتن برنس) Morton Prince (١٨٥٤ ـ ١٩٢٩) فى بوسطون بأمريكا، الذى اتبع طريقة التنويم المغناطيسى فى علاج انقسام الشخصية، وقام بتجارب خاصة بانقسام الشعور أو تصدعه .

وظهر فى باريس پيير جانيه[1] P.Janet (ولد سنة ١٨٥٩ م) فعنى بدراسة ما يسمى باللاشعور أو العقل الباطن ، وعملياته المختلفة، التى سماها (الأعمال العقلية الآلية) وقد تفرغ فى أواخر القرن الماضى لمعالجة الأمراض العصبية ، واتبع طريقة شاركوت فى معالجة الهستريا بالتنويم المغناطيسى ، وقد وجد أن المريض يستطيع أن يتذكر فى أثناء النوم بعض حوادث ماضية ، لا يستطيع تذكرها فى حالة اليقظة ، ومن هذه الصدمات الانفعالية الحادة التى قاساها المريض فيما مضى . ووجد أيضا أنه إذا أمكن أن يوحى إلى المريض وهو نائم أن هذه الصدمات قد انتهى أمرها، ولم يبق لها أثر الآن فإن الأعراض الهستيرية المتصلة بتلك الصدمات تذهب .

وقد سار جانيه فى طريقه يدرس أنواعا أخرى من الأمراض العصبية ؛ كأنواع المخاوف والقلق النفسى، وقد سمى هذا أمراض الضعف العقلى . Psychoasthenia ، وعالجها بطريق تجديد التربية Ré Education. وكان يرى أن جميع الأمراض العصبية ترجع إلى انحطاط عام فى النشاط العقلى ، يعجز معه المريض عن بذل نشاط إرادى عملى فى سبيل التغلب على مشكلات الحياة .

وقد كان لظهور جانيه آثار بارزة فى تقدم علم النفس والعلاج النفسانى. ولكن نجم فرويد لم يلبث أن تألق، فأفل بتألقه نجم جانيه ، واحتل الميدان مدرسة التحليل النفسانى التى تزعمها فرويد .

---

(١) Pierre Janet .

(ب) فـــرويد

ولد هذا الزعيم سنة ١٨٥٦ فى تشكوسلوفاكيا ، ولـكنه قضى السنوات الأولى من حياته فى ڤينا . وبجامعتها بدأ دراسة وظائف الأعضاء ، ثم عنى بدراسة الطب ، واهتم بالجهاز العصبى وأمراضـــه . وبلغته شهرة شاركوت ، فذهب إلى باريس سنة ١٨٨٢م . ودرس مع شاركوت سنة كاملة ، وأعجب بطريقته فى معالجة الهستريا بالتنويم الصناعى ، وتأثر بإشارة عابرة صدرت عن شاركوت ، مؤداها أن «لجميع الاضطرابات العصبية علاقة بحياة المريض الجنسية» ، فعلقت هذه الإشارة بذهنه ، وكان لها أبلغ الآثار فى نظرياته التى استحدثها فيما بعد .

عاد فرويد إلى ڤينا ، وبدأ يمارس معالجة الحالات العصبية بالتنويم الصناعى ، ولـكنه لم يلبث أن أدرك فى هذه الطريقة بعض صعوبات. أهمها : أن كثيراً من المرضى لم يمكن تنويمهم ، وأن النجاح فى هذه الطريقة لم يكن مطرداً . فدعاه ذلك إلى الرحيل إلى فرنسا مرة ثانية والاتصال بزعماء مدرسة نانسى ، الذين ادعوا أن طريقة التنويم نجحت فى جميع الحالات . ولشد ما دهش حينما سمع من بعض أعضاء هـذه المدرسة أن نجاح الطريقة كان مقصوراً على زائرى المصحات العقلية العامة، دون المرضى الذين كانوا يترددون على العيادات الخاصة .

عاد فرويد إلى ڤينا فحاول تطبيق الطريقة عينها على خواص المرضى فـكان نجاحه محدوداً ؛ ولذا تطلع إلى ابتكار طريقة أفضل منها .

وهنا يحتل الميدان شخصية معروفة ذلـكم هو بروير الڤينى Breuer الذى أخـذ عنه فرويد أكثر مما أخذ عن شاركوت ومدرسة نانسى .

كان هذا الطبيب يفكر مثل فرويد فى ابتكار طريقة أخرى غير التنويم الصناعى

لعلاج الأمراض العصبية ، وقد تحقق أمله حين طالبته مريضة كان يعالجها بالتنويم أن يسمح لها أن تسترسل فى حديثها أثناء نومها، حتى تقص قصص حياتها ، وتتحدث عن مشكلاتها الانفعالية ، وقد قررت أن ذلك يريحها فيما بعد . وكان هـذا مفتاح الطريقة المرجوة ؛ فقد وجد بروير بعد اتباع هـذه الطريقة عدة جلسات أن حالة المريضة قد تحسنت ، وأن حياتها العقلية صارت عادية .

وقد وجد هو وفرويد أن هـذه الطريقة التى هى مزيج من التنويم المغناطيسى والسماح للمريض بالتحدث عن نفسه ومتاعبه الوجدانية ـ قد نجحت فى معالجة أشخاص آخرين ، فنشرا نتائج بحثهما سنتى ١٨٩٣ـ١٨٩٥ م ، وفى الوقت نفسه تقريباً نشر جانيه نتيجة أبحاثه الخاصة بعلاج الهستريا ، وذكر أن التنويم يمكن أن يتخذ وسيلة لإيقاظ ذكريات المريض الماضية ، ومعرفة السبب فى مرضـه ؛ وبذلك كانت طريقة جانيه مماثلة لطريقة فرويد وبروير ، غير أن الأخيرين امتازا بإدراك ما لمجرد استمرار المريض فى سرد حوادث ماضية من تأثير فى شفائه ، وقد سميا الطريقة الجديدة طريقة التنظيف العقلى (١) ، أو طريقة التنفيس (٢) .

ولسبب ما ترك بروير الميدان ، وبقى فيه فرويد يتغلب على صعوبات الموقف. وقد هداه تفكيره إلى ترك التنويم الصناعى ، والاكتفاء بالسماح للمريض أن يقص قصص حياته بملء حريته، بطريقة تداعى المعانى المطلق . ورأى أن هـذه الطريقة بطيئة ، فاستعان على معرفة اتجاه المريض النفسى بوسائل أخرى ، فعمد إلى تحليل أحلامه وتأويلها، ووضع نظريته المشهورة الخاصة بوظيفة الأحلام، وهى أنها تحقق فى عالم النوم الرغبات المكبوتة التى أخفق الإنسان فى تحقيقها فى عالم اليقظة . ثم ابتكر طريقة أخرى وهى دراسة هفوات لسان المريض ، وأخطاء قلمه ، وشـذوذ سلوكه ، وما

---

(١) Mental Catharsis . (٢) Abreaction

يصدر عنه من ضروب المزاح والتنكيت . وقد اتخذ من هذه جميعها وسائل لدراسة عقل المريض الباطن ، واستخراج ما فيه من الرغبات الدفينة والميول المكبوتة التى سماها العقد النفسية . وقد قرر فى نفسه بعد هذه المباحث نفسها أن مرد جميع الأمراض العقلية والعصبية إلى انحراف الغريزة الجنسية عن الطريق السوى ، وقد بهر العالم بهذه النظرية . ولما كانت طريقة فرويد فى العلاج النفسانى تستند إلى رأيه فى تكوين العقل كان لزاماً علينا أن نذكر رأيه هذا على سبيل الإيجاز فنقول :

يرى فرويد أن للعقل ثلاث مناطق يسميها : (١) النفس السفلى أو هو ، (٢) النفس أو الذات أو أنا (٣) النفس العليا أو الضمير . وأن للذات ثلاث مناطق وهى : (١) الشعور (٢) شبه الشعور (٣) اللاشعور .

فالنفس السفلى أو البدائية تتضمن الغرائز والنزعات البدائية الفطرية فى حالاتها الساذجة ، وهى المؤثر الأول فى سلوك الإنسان الهمجى أو الطائش الذى لا يخضع لقانون ولا لتقاليد . والمسيطر على هذه النفس هو مبدأ اللذة والألم ؛ أى أنها تحمل الإنسان على العمل لإرضاء النزعات الفردية ، والحصول على اللذة ، وتجنب الألم .

أما الذات أو النفس الاجتماعية فتنشأ باتصال النفس السفلى بالعالم الخارجى أو البيئة وامتزاجهما وتوافقهما وانسجامهما . وهذه النفس هى التى يريدها الإنسان حينما يقول (أنا) وهى تتأثر بالواقع والحقيقة ، أى أن المسيطر عليها هو القانون والتقاليد والنظم الاجتماعية .

ولهذه الذات ثلاث مناطق هى : (١) الشعور ويتضمن الأفكار والرغبات التى يعلم بها الإنسان ، وتشغل نفسه فى وقت ما (٢) شبه الشعور ويتضمن الأفكار والرغبات التى لا تشغل النفس ولكنها صالحة لدخول حظيرة الشعور لأسباب عادية بحكم تداعى المعانى ؛ أى تواردها على الذهن تبعا لتغير الظروف ، وتقلب الأحوال .

أما المنطقة الثالثة فهى منطقة اللاشعور أو العقل الباطن ، وتتضمن الرغبات الدفينة فى أعماق النفس ، والعقد النفسية المكبوتة ، والذكريات الماضية التى أرغمت على الانحدار من الشعور إلى اللاشعور ، والإيواء إلى حظيرة العقل الباطن ؛ لأنها لا تلائم الحياة الاجتماعية ، ولا توافق آداب المجتمع ، ولا تقاليد البيئة .

ويتكون العقل الباطن نتيجة للصراع بين النفس السفلى وبين عالم الحقيقة والواقع.

ومعنى ذلك أن الإنسان يولد مزوداً برغبات شخصية تتجمع فى رأى فرويد حول الليبيدو[1] أو النزوع الجنسى بوجه خاص ، ولكن هذه الرغبات لا يمكن تحقيقها بحكم نظم البيئة والتقاليد الاجتماعية ، فتبقى مغلوبة على أمرها ، محجوبة عن الظهور . وعلى مر الزمن تنضم إليها رغبات أخرى لا تتحقق ، فتكون فى العقل الباطن عقداً أو مجموعات من الرغبات المكبوتة، يتكون كل منها من رغبات أو انفعالات متشابهة متصلة بشىء أو شخص معين . وتظل هذه كامنة فى غياهب هذا السجن «اللاشعور»، ولكنها تنتهز أية فرصة لمحاولة تحطيم أبواب السجن ، والخروج من عالم الخفاء إلى عالم الظهور، فلا تتمكن من ذلك ؛ لأن هناك رقيباً يمنعها من الخروج ، وهذا الرقيب هو القانون الاجتماعى ، أو رغبة الإنسان فى العيش فى بيئته عيشة ملاينة وسلام .

فإذا قويت هذه الرغبات ولم تجد لها منفذاً تغلبت على الرقيب وخرجت قهراً عنه ، وتخلصت من القيود والأغلال ، وحطمت كل ما يقوم فى وجهها . وفى هذه الحال تظهر على المرء أعراض الجنون أو المرض العصبى، أو يقوم بأعمال شاذة غريبة.

ولكنها إذا وجدت لها منفذاً — ولو بالاحتيال على الرقيب — سعت فى الخروج بالتحايل، رأفة بكيان السجن (العقل الباطن)، ورغبة فى الاتصال بالعقل الظاهر والعيش معه عيشة وئام وانسجام .

---

(١) Libido .

واحتيالها على الرقيب يشتد وينجح فى أوقات ضعفه أو غفلته عن الرقابة وقتياً ؛ أى حين يخف ضغط العقل اليقظ ، كما فى حالة النوم والتنويم والمرض ، فحينئذ تلبس هذه الرغبات غير ملابسها ، وتتنكر أمام الرقيب ، وتنتحل شخصيات غير شخصياتها ، وتخرج إلى العقل اليقظ بأزياء أخرى ؛ كما هى الحال فى الأحلام الرمزية ، والخبل ، والوهم ، وانقسام الشخصية . وقد تظهر كما هى غير مشوهة فى أثناء التنويم المغناطيسى ، وتظهر آثار اللاشعور فى الشعور أيضا بالنسيان ، وهفوات اللسان ، وغلطات القلم ، والأعمال الشاذة ، والهفوات الاجتماعية ، والخوف من الظلمة أو صغار الحيوان[1] .

أما الضمير أو النفس العليا فيتضمن من المبادئ والمثل العليا الخلقية والدينية ، وله السيطرة على الذات ، والرقابة على علاقتها بالنفس السفلى ، وكثيراً ما يكون الحكم المتغلب فى حسم النزاع بينهما .

وينشأ الضمير من الذات ، أى أن ناحية منها تتطور ، وتتصل بالمثل العليا ، ويكون لها السلطان على النواحى الأخرى .

ويبدأ تكون النفس العليا باتصال الطفل بأبويه اللذين يقدسهما ويعدهما مثلا أعلى له ، ثم تتطور هذه النفس ، وتسمو بالتعلم والتهذيب الروحانى الخلق .

ويرى فرويد أن الغريزة الجنسية هى الغريزة الرئيسية المؤثرة فى حياة الإنسان ، وسلوكه منذ ولادته ، وأن كبتها هو السبب فيما يعترى الإنسان من أمراض جثمانية ، وعلل نفسية ، وشذوذ اجتماعى .

ولها مظاهر تختلف باختلاف مراحل نمو الإنسان ، ففى السنة الأولى من الحياة تتجه نحو مص الأشياء . وفى الثانية تتجه نحو أعضاء الجسم واللعب بها . وفى الثالثة

---

(١) راجع الفصل الثالث عشر بقلم المؤلف فى الجزء الأول من كتاب « فى علم النفس » ففيه مزيد بيان لهذا الموضوع .

تتجه إلى الفضلات التى تخرج من الجسم . وفى الرابعة والخامسة تتجه إلى الأبوين فيولع الابن بأمه ، والبنت بأبيها، وقد تتكون عقدة أوديب فى نفس الابن ، وعقدة الكترا فى نفس البنت . وتتضمن عقد أوديب رغبات وميولا جنسية مكبوتة فى نفس الابن متصلة بأمه . وتتضمن عقدة الكترا وجدانات وشعوراً جنسيا تكتب فى نفس البنت متصلة بأبيها .

(ح) بين فرويد وآدلر

حوالى سنة ١٩١٢م حدث انقسام فى مدرسة فرويد ؛ فانشق عليه بعض أعضائها لخلاف بينهم فى الرأى . وكان من أشهر الخارجين على الزعيم آدلر ويونج .

أما الفرد آدلر الفينى (ولد سنة ١٨٧٠م) فكان من أتباع فرويد المعجبين به ، ولكنه خرج عليه سنة ١٩١٢ ، وخالفه مخالفة صريحة فى رأيه فى الغريزة الجنسية، والرغبة المنبعثة عنها التى سماها فرويد الليبيدو Libido ، ثم أسس مدرسة جديدة سماها: « مدرسة علم النفس الفردى Individual Psychology . »

ويقوم مذهب آدلر على أن الشعور بالضعة أو النقص هو سبب جميع العلل العصبية والعقلية ؛ فإن وجود هذا الشعور لدى أى شخص من الأشخاص غير مرغوب فيه ولا يمكن احتماله ؛ لأن كل فرد مطبوع على حب السيطرة والرغبة فى الظهور ، ولذا كان من الضرورى التخلص من هذا؛ إما بالانتحار ، وإما بادعاء الرفعة والعظمة ، وإما بعمل ما يرفع الشخص فى أعين غيره من الناس ؛ تعويضا عما يشعر به فى قرارة نفسه من نقص. وقد ينتهى به الأمر إلى النجاح فى الحياة ، والنبوغ فى أى ناحية من نواحيها ، أو إلى الفشل وخيبة الأمل؛ تبعاً لظروفه وحياته الخاصة ، ومنهج تربيته .

وعلى هذا فغريزة إعلاء النفس أو حب الظهور هى الغريزة الفعالة التى لها الشأن الأول فى حياة الفرد . أما الغريزة الجنسية فلها أثر لا ينكر فى توجيه سلوك الإنسان،

ولكن منزلتها ثانوية إذا قيست بمنزلة غريزة حب الظهور ، التى تعد مصدر النجاح والنبوغ ـ إذا سارت سيرها الطبيعى ، ونالت مآربها ، أو سبباً فى الخيبة والفشل والشذوذ فى السلوك ـ إذا انحرفت عن جادتها الطبيعية، ولم تنل مآربها .

ويعزو آدلر خيالات الفرد وأوهامه إلى رغبة النفس فى التخلص من ألم الشعور بالنقص ؛ فبهذه الأوهام يبنى قصوراً فى الهواء ، ويجعل نفسه بطلاً من الأبطال ، وينفّس عن نفسه كربة الشعور بالعجز .

وإلى هذا الشعور نفسه ترجع محاولة الفرد التغلب على صعوبات الحياة ، والحصولَ على الجاه والاستمتاعَ بالمناصب الاجتماعية الراقية .

ولكن أسلوب الحياة الذى ألفه منذ الطفولة قد يحول بينه وبين ما يشتهى ، ويقعد به عن الوصول إلى ما يريد ، وهنا تقع الكارثة ، فينشأ الاضطراب العصبى ، والأمراض العقلية ، أو يسلك المرء فى الحياة مسلكاً شاذاً .

ويقرر آدلر أن كل فرد ينشأ على اتباع نمط أو أسلوب معيَّن فى السلوك والتفكير منذ طفولته الأولى. ويقول إن العوامل التى تعمل على تكوّن هذا الأسلوب تشمل : (١) طريقة معاملة الأسرة للطفل . (٢) منزلة الطفل فى الأسرة ؛ كأن يكون وحيداً أو أصغر الأولاد أو أكبرهم . (٣) منزلة الأسرة الاجتماعية والاقتصادية . (٤) نوع الطفل إن ذكراً أو أنثى .

وأسلوب الحياة الذى يألفه الفرد منذ حداثته يكاد يبقى كما هو ملازماً له طول حياته ، ويتمثل فى مزاج الفرد ووجهة نظره نحو نفسه ، ونحو العالم الذى يعيش فيه، بل نحو الحياة نفسها ، وهو الذى يحدد آماله ومطامعه فى الحياة ، ويجعله يسلك مسلكاً خاصاً فى مقاومته المشكلات، وبخاصة مشكلات الحياة الاجتماعية، ومشكلات الوظيفة أو المهنة التى يتولّاها ، ومشكلات الحياة الزوجية .

ولهذا كله يرى آدلر أن الغرض الأساسى الذى يجب أن يرمى إليه الطبيب من دراسة المصاب بمرض عقلى ، وتحليل نفسه هو : أن يكشف عن أسلوبه فى الحياة ، وعن الهدف الخاص الذى كان يهدف إليه وهو طفل ـ ولا يزال يرمى إليه الآن ـ لتحقيق شخصيته ، والتخلص من شعوره بالنقص .

ومن الممكن معرفة هذين الأمرين بالإلمام بمنزلته من الأسرة ، وبمعرفة ما يحب أو يكرهه من الأشياء والأشخاص ، وأبطال التاريخ أو الروايات الذين يقدسهم ، ونوع المهنة الذى مال إليها وهو طفل ، ولا يزال يميل إليه حتى الآن ، وكذلك هيئته عند الوقوف والمشى والجلوس والتسليم على الناس بيديه ، والهيئة التى يستقر عليها عند النوم . وقد قرر آدلر أن النوم مع مد الرجلين دليل على الرغبة فى العظمة ، وأن النوم مع ثنيهما ، وإلصاق الفخذين بالبطن ، وتغطية الرأس ـ دليل على الخمول وعدم الرغبة فى العظمة ، وأن النوم على البطن دليل على الميل إلى العناد والسلوك السلبى .

ويتخذ آدلر تأويل الأحلام وسيلة لمعرفة نمط المريض فى الحياة ، ولا يرى أنها وسائل لتحقيق الرغبات المكبوتة كما يقول فرويد ، فهى فى نظره متصلة بالمستقبل أكثر من اتصالها بالماضى ؛ إذ أنها فى الغالب تمثيل لعمل هام سيقوم به الشخص فى المستقبل ؛ فالرجل المتردد مثلا الذى يفكر فى الزواج يرى فى النوم أنه يحاول أن يعبر الحدود الفاصلة بين مملكتين ، وأنه يؤمر بالوقوف ، وإلا عرض نفسه لعقوبة السجن ، فهذه الرؤيا تتصل بمشكلة لم يبت فيها من مشكلات المستقبل ، وهى مشكلة الزواج ، وتمثل مسلك صاحبها فى حل مثل تلك المشكلة وغيرها ، وهو مسلك عادى بالنسبة له ، درج عليه منذ صغره ، ولازمه حتى كبر ، فكان نمطه أو أسلوبه فى الحياة ، وهو مسلك التردد .

والغرض الأساسى الذى يجب أن يرمى إليه الطبيب فى معالجة معوج السلوك

الذى انقطع حبل الصلة والانسجام بينه وبين بيئته هو أن يبصره بنفسه ، ويحمله بأناة ورفق على أن يتأكد من وجود عقدة الضعة كامنة فى نفسه ، ويبيّن له المسلك الذى يسلكه فى الحياة، لستر هذه العقدة، والوصول إلى الرفعة ، والحصول على المكانة السامية التى تتوق إليها نفسه .

ومع أنه ليس من الممكن تغيير أسلوب الفرد ومسلكه فى الحياة بعد مضى عهد الطفولة ، فمن الممكن توجيهه توجيهاً حسناً، بحيث يصبح أكثر اتصالا بالواقع،وأشد ملاءمة للحياة الاجتماعية ، وأكثر انسجاماً مع البيئة .

وليس للعقل الباطن فى رأى آدلر تلك المنزلة الرفيعة التى له فى رأى فرويد ، وليس بينه وبين العقل الظاهر تلك الحواجز التى يتصورها فرويد . وإن نمط الحياة الذى يدرج عليه الفرد منذطفولته الأولى يصير محتلا من نفسه ما وراء الستار ـ مادام غير مفهوم أو غير معلل . فإذا فهم وعرف سببه أو منشؤه أصبح شعورياً . ووظيفة المحلل النفسانى تكاد تنحصر فى نقل هذا المسلك من اللاشعور إلى الشعور ؛ بجعله مفهوماً أى معروف السبب والمنشأ لدى المريض .

يقول ودورث؛ ملخصاً رأيه فى مبادئ آدلر النفسانية، وطريقته فى العلاج النفسانى: « للمرء أن يقول إن آراءه أسهل من آراء فرويد؛ أسهل من حيث إنها تُفهَم وتدرك بسهولة ويسر ، ومن حيث إن من الهيّن تطبيقها . ولقد برهنت طريقة آدلر على عظم قيمتها ، وسمو منزلتها ، وبخاصة فى معاونة الأطفال على التغلب على ما يعرض لهم من المشكلات، وبذلك حظى مذهب آدلر بمنزلة رفيعة وسلطان نافذ فى ميدان التربية »(١)

(٤) بين فرويد ويونج

ولد يونج بزوريخ بسويسرا سنة ١٨٧٥م ، وبعد أن درس علم النفس التحليلى، ومارس التحليل النفسانى عدة سنوات اتصل اتصالا شخصياً بفرويد، وقويت الرابطة

(١) Contemporary Schools of Psychology, by R. woodworth P.178.

بين الرجلين بتبادل الرسائل ، والاشتراك فى بعض المؤتمرات العلميـة . وقد أعجب فرويد بتلميذه الناشئ؛ حتى جعله رئيساً لجماعة التحليل النفسانى الدولية . وكان فرويد يعتقد أن تنحيه عن رياسة هـذه الجماعة الحديثة العهد ربما يكون سبباً فى إقبال الجمهور والعلماء عليها .

ولم يمنع تقدير فرويد لتلميذه من أن ينشق على أستاذه ، وأن يقرر أن مذهبه لم يزل فجاً لم ينضج بعد ، على الرغم من أنه فتح جديد ، بل ثورة عنيفة فى عالم المباحث النفسية. وقد أخذ يونج بعد خروجه على أستاذه يكوّن له مذهباً خاصًا فى علم النفس، يخالف مذهب أستاذه فى مواضع كثيرة ، وقد بلغ الخلاف بين الرجلين أشده فى أمرين هما :

(١) أسباب الأمراض العصبية العقلية .

(٢) أثر الليبيدو فى الحياة . والليبيدو كما تعرف هو الانفعال الخاص المتصل بالغريزة الجنسية .

أما سبب الأمراض العصبية فهو ـ فى رأى فرويد ـ عقدة أوديب التى تتكوّن فى دور الطفولة ، ويؤدى انفجارها فى دور الشباب أو الرجولة إلى ظهور أعراض الأمراض العصبية . ولا يوافق يونج على هذا ، بل يرى أن عقدة أوديب قد تكون من الأسباب المعرضة للإصابة بالأمراض العصبية ، أما السبب المثير أو المباشر فقد أهمله فرويد بعض الإهمال ؛ ومعنى ذلك أن مجرد تكوّن أى عقدة من العقد النفسية فى عهد الطفولة لا يكفى لأن يكون سببًا مثيراً للإصابة بمرض عصبى أو أكثر فيما بعد ، بل لابد من إضافة سبب أو أسباب أخرى مباشرة ؛ أى أن الفرد قد يحمل فى أعماق نفسه فى عهد الطفولة عقدة نفسية، نتيجة لفشله فى تهيئة نفسه لأن يعيش فى بيئته الخاصة عيشة انسجام وتوافق، ومع ذلك لا يقع فريسة لمرض عصبى، إلا إذا اعترضته مشكلة جديدة من مشكلات الحياة، يعجز عن حلها؛ لأن هذه المشكلة تتطلب من الفرد

بذل جهود جديدة لمقاومتها ، ولكنه لا يجد فى نفسه مقدرة كافية على مقاومتها ؛ لأنه قد تعوّد وهو صغير أن يقف مكتوف اليدين أمام مشكلات الأسرة ، فهو فى حياته الحاضرة يرجع إلى ما تعوّده فى حياته الماضية من ضعف العزيمة والاكتفاء بحل مشكلاته فى عالم الخيالات والأوهام ، فهذا الرجوع إلى الماضى أو التأثر به يبعده عن إدراك مشكلات الحاضر ، ويحول بينه وبين حلها، فلا يكون هناك انسجام بين سلوكه وبين مقتضيات الحياة ، وحينئذ يقع فريسة للمرض العصبى . وإذا فرضنا أن المشكلة الحالية تنحل من تلقاء نفسها كان ذلك داعيًا إلى أن يسلك الفرد فى حياته مسلكا عادياً طبيعيًا دون الرجوع إلى عادته التى ألفها فى عهد الطفولة فلا يلجأ إلى الأوهام والخيالات ، ولا يكون هناك داع للإصابة بمرض عصبى .

لهذا كله يقرر يونج أن صعوبة التوافق والانسجام بين الفرد وبين بيئته الراهنة هى السبب الحقيقى أو المباشر المثير للإصابة بالأمراض العصبيـة ، وفى ذلك يقول : « نَحِّ العقبات من طريق الحياة ينقطع دابر أشباح الطفولة فى الحال ، وتعود آثار الماضى كما كانت من قبل خامدة هامدة عديمة التأثير. ولكن لتتذكر أنها وإن خمدت فإنها لا تزال نشيطة إلى حد ما تؤثر فى الحياة فى كل زمان وفى كل مكان ؛ لذا ترانى لا أبحث عن سبب المرض العصبى فى الماضى ، ولكن فى حوادث الحاضر ، وإنى أسأل : ما هو الواجب الضرورى الذى لا يقدم المريض على القيام به ؟ والغرض من هـذا السؤال وما يشبهه أن يعرف الطبيب ما عسى أن يكون فى سلوك المريض من ضعف يقعد به عن مقاومة بيئته والعيش فيها معيشة توافق وانسجام . »

هذا وإن يونج يسلك مسلك فرويد فى علاج الأمراض العقلية ، فيحلل نفسية المريض بتحليل أحلامه ، ويتركه يقص قصص حياته بطريقة تداعى المعانى المطلق ، غير أنه يبدأ بدراسة مشكلات المريض فى حياته الحاضرة ، ويبذل جهده فى تعرف

عناصر الضعف فى نفسه، التى حالت بينه وبين التغلب على هذه المشكلات . ولا يفسر أحلام المريض على أساس أنها تحقق رغباته الجنسية الماضية المكبوتة ـ كما يقول فرويد ـ ولكن على أساس أنها تدل على ما يكنه عقله الباطن من موقفه أمام مشكلات الحاضر، أو وجهة نظره نحو الحياة الحاضرة .

والغرض من التحليل النفسانى فى رأى يونج أن يُعلم المريض بأسلوبه البدائى الذى ألفه فى مقاومة مشكلات الطفولة ، ويجعله قادراً على إدراك ما بين عقله الباطن وعقله الظاهر من صلة وارتباط ، وبذلك يدرك حاضره ، ويفهم ماضيه ، وتتكوّن لديه شخصية متآلفة العناصر، ليس بين ماضيها وحاضرها تنافر أو تخالف .

أما فكرة يونج الخاصة باللبيدو فتقوم على إنكار قصوره على الرغبات الجنسية، وعلى اتساع معناه بحيث يشمل المعنى الذى يراه فرويد والمعنى الذى يقصده آدلر من الرغبة فى الحصول على العظمة أو القوة . وبذلك يجمع بين رأيى زميليه ، ويؤلف بينهما ، ويفهم من اللبيدو معنى عامًا يساوى ما يقصده شوبنهور « بالرغبة فى الحياة Will to Live » ، أو ما يقصده بيرجسون بالدافع الحيوى Elan Vital .

والذى يعنينا من هذا كله أن يونج يرى أن أساس النشاط الإنسانى هو الرغبة فى الحياة بوجه عام ، وأن جميع الأمراض العصبية تنشأ أولا وقبل كل شىء عن عجز المريض عن تحقيق هذه الرغبة ، وعدم استطاعته أن يوفق بين سلوكه وبين مقتضيات الحياة ، وأن هذا العجز يرجع إلى ما ألفه الفرد فى حياته الأولى من عجزه عن توجيه إرادته توجيهًا صحيحاً صادقاً نحو حل ما اعترضه من مشكلات ، وأن علاج المريض وشفاءه من مرضه يتوقف على إلمامه بماضيه ، وإدراك مبلغ تأثيره فى حاضره ؛ فإن هذا وذاك كفيلان بحل العقد النفسية ، والتوفيق بين الماضى والحاضر ، واستكمال أسباب الصحة العقلية .

الباب الثانى

أسباب الأمراض العقلية وطرائق علاجها

الفصل السابع

صحة العقل ومرضه

إنى أدرك تمام الإدراك ما يعترض الباحث من صعوبات حينما يريد أن يضع تعريفاً دقيقاً جامعاً مانعاً لأمر من الأمور ، أو لاصطلاح من المصطلحات العلمية . ولهذا لا أرى من الهين تحديد معنى الصحة العقلية ، فهو من الأمور الاعتبارية التى تتفاوت فى فهمها العقول ، وتختلف الأذهان ، وما ذلك إلا لعدم وجود مقياس مضبوط به تقاس حالة الشخص، ويعرف ما إذا كان صحيح العقل أو مريض النفس . ولم يصل الأطباء بعد لتعيين حد فاصل بين الصحة والمرض .

غير أن التعريف الصعب البعيد المنال هو التعريف المنطق الجامع المانع ، أما التعريف الذى يتقبله العرف العام ، ويقع لدى الباحث العادى موقعاً حسناً فقد يكون سهلا ميسوراً ؛ فلنا فى ضوء هذا أن نقول فى تعريف الصحة العقلية إنها : « قدرة الفرد على أن يساير فى تفكيره وسلوكه بيئته واستعداده مسايرة مرضية » . وأن نقول تبعاً لذلك : « إن الشخص السليم العقل هو الذى يسلك فى تفكيره وأعماله مسلكا عاديا منسجماً ـ ولو إلى حد ما ـ مع استعداده من جهة ، ومع بيئته من جهة أخرى . »

وإنما قلنا « واستعداده » لأن الحكم على السلوك لابد أن ينظر فيه إلى استعداد الشخص، وثقافته ، وسنه ، ونوعه . فإذا كان سلوكه منسجماً مع هذه الأمور حكمنا عليه بأنه عادى ـ وإن كان يعد شاذاً بالنسبة لمستوى عقلى آخر ، أو بالنسبة لسلوك شخص مثقف ثقافة راقية . وبدهى أنه لا ينبغى أن نقيس سلوك الطفل بمقياس سلوك الرجل ، ولا أن نجعل سلوك الرجال وتصرفاتهم مقاييس للحكم على سلوك

النساء وتصرفاتهن . فكل يعمل على شاكلته . وسنزيد هذا الموضوع بياناً فيما يأتي:

هـذا هو المعنى الإيجابي للصحة العقلية ، أما معناه السلبي فهو : خلو سلوك الشخص العقلي والعملي من أنواع الشذوذ التي يستنكرها العرف العام بالنسبة له ، وسنعرض لأنواع الشذوذ هـذه عند الكلام على المرض العقلي. وبديهي أن الصحة العقلية هي الأصل في الخلقة البشرية ؛ فالله تعالى قد خلق الإنسان في أحسن تقويم، وكرمه بالعقل الراجح ، والذكاء الفائق ؛ فالأصل في الإنسان باعتباره إنسانا أن يسلك في تفكيره وأعماله مسلكا سليما ملائما لاستعداده وبيئته ، وألا يشذ عن هذا المسلك إلا لأسباب طارئة على نفسه، خارجة عن كيانها الذاتي .

ومعنى ذلك بعبارة أخرى أن الصحة العقلية أمر طبيعي في الإنسان ، وأن المرض أمر طارئ غير طبيعي .

وإذا سلمنا بأن الصحة هي الأصل لم يكن من المستساغ أن نسأل عن أسبابها ، فقديماً قيل : « إن ما جاء على أصله لا يسأل عنه . »

على أن لقائل أن يقول : لماذا لا نسأل عن سبب الصحة العقلية ؟ وما الذي يمنع من أن نسأل : «لماذا كان فلان هذا صحيح العقل قوي الجسم؟ ثم نتلمس الأسباب في أسلوب حياته الخاصة ونوع ثقافته ، والظروف التي أحاطت به ؟ ومن السهل أن نرد على هـــذا بأن البحث في أسباب الصحة لا يعنينا ؛ لأن أحوال السليم العادي لا تستلفت الأنظار ، ولا تسترعي الانتباه. أما المريض فهو الذي يعنينا أمره ، وتهمنا معرفة أسباب علته؛ كي نعالجه فنكفي شره ، ونعود به إلى الحالة الطبيعية المألوفة في غيره من الأصحاء ، فيكون عضواً عاملا من أعضاء المجتمع .

فلننتقل إذاً إلى البحث في المرض العقلي ؛ فقد يلقي البحث فيه ومعرفة حقيقته ضوءاً جديداً على معنى الصحة العقلية فنزداد علما بحقيقتها. فمن الثابت المأثور: أن الأشياء تتميز بأضدادها :

ومن خير ما قيل فى تعريف المرض العقلى : « أنه تجاوز المستوى العادى[١] تجاوزاً ملحوظا فى التفكير والانفعال أو العمل ، إما بالضعف ، وإما بالشذوذ . »
ولا يدخل العرف العام فى عداد الأمراض العقلية حالات الاضطراب العقلى الوقتى الناشىء مثلا عن صدمة انفعالية قوية مؤقتة ، أو عن تناول مواد مخدرة، أو عن الإصابة بمرض جثمانى شديد ، كالحمى التى يصحبها فى الغالب أوهام وخيالات . ويضيق معنى المرض العقلى فى رأى بعض خواص المفكرين فلا يشمل عندهم بعض حالات الضعف العقلى المحتمل ، ولافقد بعض العناصر العقلية البسيطة ؛ فمن فقد عاطفته أو خمدت جذوة ذكائه ، لايعد مصابا بمرض عقلى فى نظر هؤلاء الذين يقصرون الأمراض العقلية على الحالات العقلية البادية الشذوذ؛ كالصرع ، والخور، والميلانخوليا .

ويرى رجال القانون أن الشخص لا يوصف بأنه سليم العقل Sane إلا إذا قدر على التفرقة بين الصحيح والخطأ من الأعمال ، وعُرِف بقوة الذاكرة إلى حد معقول، واستطاع أن يدير شئونه الخاصة بشىء من الحزم . وبناء على هذا الاصطلاح القانونى يدخل فى الأمراض العقلية ضعف التفكير الذى يبدو فى عدم تمييز الخطأ من الصواب من الأعمال ، وكذلك ضعف الذاكرة إلى درجة ملحوظة ، والعجز عن التصرف فى الشئون الخاصة تصرفا معقولا . أما علماء النفس والعلاج النفسانى فيرون أن المرض العقلى يتسع فيشمل جميع حالات الشذوذ فى التفكير والإدراك ، التى يترتب عليها شذوذ فى الأعمال الإرادية والسلوك .

وتمتاز الأمراض العقلية بهذا المعنى بأنها حالات خروج عن الحد المألوف فى الحياة العقلية، إما بالزيادة وإما بالنقص؛ فمجرد تقلب الانفعالات أو اضطراب التفكير أو السلوك

---

(١) راجع مقالة Insanity فى قاموس علم النفس والفلسفة .
Dictionary of Psychology and Philosophy, Edited by Baldwin.

أمر عادى يعرض حتى لأصحاء العقول . ولكنه إذا جاوز حده، أو أصبح صفة ثابتة صار مرضا عقليا فى حاجة إلى علاج . وكذلك خمود جذوة الانفعال ، أو انطفاء شعلة التفكير، أوضعف الإرادة ضعفا بينا يظهر فى سوء التصرف أواعتقال الإرادة[١] ـ كل هـذه تعتبر أمراضا عقلية إذا كانت عادية راسخة فى النفس ؛ لأنها تمتاز بتدهور أو هبوط فى الحياة العقلية .

ويستدل على المرض العقلى بأمرين : أحـدهما باطنى، ويعرف من وصف المريض نفسه لانفعالاته وأفكاره ، والآخر خارجى وهو سلوك المريض أو أعماله الصادرة عن إرادته .

ومن الخطأ أن نعتمد اعتماداً كلياً على الدليل الثانى ونهمل الأول ؛ فقد دلت التجارب على أن البواعث الشاذة قد تؤدى على سـبيل المصادفة إلى سلوك مرضى مقبول ، وأن الأحكام الصحيحة قد تـكون نتيجة لشكوك وأوهام وتفكير سقيم ، وأن الميول الشاذة قد تقاوم أو تـكبت فلا تظهر آثارها فى الخارج ، وأن التضارب بين الميول والرغبات النفسية المـكبوتة الخفية وبين الظروف الخارجية كثيراً ما يكون سببا فى الاضطراب أو المرض العقلى .

وينبغى ألا نحصر المرض العقلى فى اضطراب الناحيـــة الإدراكية . نعم إن التفكير الشاذ المعوج ، والاستسلام للخيالات والأوهام من أهم مظاهر المرض العقلى التى يجب أن نعنى بها . ولـكن يجب ألا ننسى ـ مع ذلك ـ الشذوذ فى الحياة الوجدانية الذى يشمل : كثرة المخاوف ، والاستسلام الدائم للغضب ، والانغماس فى الفرح والحبور ؛ ولا جمود التأثر بالمثيرات العادية ، أو التباطؤ فى تلبيتها ؛ ولا تناول الأعمال القذرة التى ينفر منهـا الذوق السليم وينكرها العرف ؛ ولا تقلقل الإرادة

---

(١) Abulia

وتقلباتها ؛ ولا التمادى فى العناد والمشاكسة ؛ ولا انقسام الشخصية وتمزق شملها - فإن هذه كلها دلائل على أمراض عقلية ينبغى التنبه لها ، والعمل على معالجتها .

فالمرض العقلى ليس مقصوراً على خلل فى الناحية الإدراكية ، ولكنه يشمل الشذوذ فى الناحيتين الوجدانية والنزوعية ، وفقد التوازن بين الميول النفسية والأفكار وبين السلوك والأعمال .

وينبغى أن يرجع فى تقرير الشذوذ إلى أحوال الفرد وظروفه الخاصة ، ويدخل فى هذه : (١) سنه (٢) مستواه العقلى (٣) نوعه (٤) منزلته الاجتماعية (٥) بيئته الاجتماعية .

فما هو عادى بالنسبة للطفل قد يكون شاذاً بالنسبة للرجل ؛ مثال ذلك : مايلحظ فى الطفل من فرح ومرح زائد ، فهو طبيعى بالنسبة له . ولكنه إذا صدر عن شاب أو رجل فإنه يعد دليلا على مرض عقلى .

وما هو مألوف بالنسبة للغبى قد يكون شاذاً بالنسبة للذكى . وما يقبل من المرأة قد لا يقبل من الرجل . وما نألفه من غير المثقف قد نستنكره من المثقف . وما هو شائع بين الناس فى الأوساط المتأخرة فى الحضارة ، قد يعتبر شاذاً فى البيئات الراقية التى قطعت فى سبيل الحضارة مراحل حاسمة . مثال ذلك : الاعتقاد الجدى فى الشعوذة ؛ فقد كان شائعاً مستساغا فى العصور الماضية ، وهو الآن مقبول بين القبائل المتأخرة فى الحضارة . ولكنه يعد دليلا على مرض عقلى إذا صدر عن رجل مثقف يعيش فى بيئة راقية ؛ فإذا قال لك رجل من هذا الطراز إنه يعتقد أن أحد المشعوذين يقتفى أثره ويقصد به السوء بأعماله السحرية ، فاعلم أنه مريض العقل ، فى حاجة ماسة إلى علاج نفسانى .

وهذا كله بين لا يحتاج إلى مزيد إيضاح .

الفصل الثامن

الأمراض العقلية

أسبابها ـ أقسامها ـ تشخيصها

بين المرض الجثمانى ومرض العقل :

المرض العقلى هو نقص أو ضعف فى العقل، يظهر فى نقص أو ضعف فى التصرفات أو الأعمال العقلية ، أو فى عجز النفس عن القيام بوظائفها على الوجه الأكمل . ومن المعروف أن وظائف العقل تنحصر فى الإدراك والوجدان والنزوع . فأى شذوذ فى ناحية من هذه النواحى يدل على مرض العقل كما بيّنا فيما سبق .

أما المرض الجثمانى فهو ضعف فى الجسم ينشأ عن خلل فى تكوين أعضائه أو أجهزته ، أو عن عطب يلحق هـــذه الأعضاء أو الأجهزة كلها أو بعضها، فيفسد تكوينها الطبيعى ، ويجعلها عاجزة عن أداء وظائفها على وجه مرضى .

ولما بين الجسم والعقل من علاقة نرى أن المرض العقلى يصحبه فى الغالب عجز بعض المراكز العصبية العليا عن أداء وظائفها ، مع سلامة تكونها ، وعدم إصابتها بعطب مادى . وبالعكس؛ فإننا نرى أن إصابة تلك المراكز العصبية العليا التى فى الدماغ بعطب مادى يؤدى إلى اضطرابات عقلية وشذوذ فى السلوك .

ـ ومن هذا يتبيّن لك ـ ولو على وجه إجمالى ـ الفرق بين المرض العقلى والمرض الجثمانى.

ومن الأمراض العقلية ما هو يسير هيّن ؛ كضعف الذاكرة ، وشدة الخوف والتردد . ومنها ماهو وبيل وخيم العاقبة ؛ كالصرع والميلانخوليا ، والهوس ، والخبل والوسوسة ، وانقسام الشخصية ، والآبوليا (اعتقال الإرادة) ، والجنون بأنواعه وفنونه .

لكل مرض عقلي سبب :

كما أن لكل مرض جثمانى سبباً أو أكثر ، كذلك أصبح من المقرر الآن أن لكل مرض عقلى سبباً أو أكثر . وعلى الرغم من انتشار العلوم والمعارف الخاصة بالعقل ووظائفه وأسباب ضعفه الطبيعيـة ، فإننا نجد بعض الأشخاص حتى المتعلمين لايزالون يعزون بعض الأمراض العقلية إلى عوامل خفية أو أسرار غريبة،أو عوامل خارجة عن طبيعة المصاب نفسها ؛ فلا تزال فكرة حلول الجن أو الشياطين بالأجسام منتشرة بين العامة . وقد ذكر الدكتور ادورد استِركَرْ فى كتابه (العلاج النفسانى) أن مصابة بمرض عقلى قدَّمها إليـه لمعالجتها بعض أقاربها ، وحذروه أن يترك ستائر غرفة المريضة مرفوعة حينما يكتمل ضوء القمر ، خشية أن تقع أشعة البدر على المريضة فيزيد مرضها سوءاً . وهـذه من بقايا العقيدة التى اعتنقها قدامى البدائيين ، ومؤداها أن للمرض العقلى علاقة بضوء القمر : تلك العقيدة التى نشأ عنها تسمية الجنون «Lunacy» ، وهذه كلمة مشتقة من كلمة لاتينية هى Lune بمعنى قمر . فهذه العقيدة وما يشبهها من الخرافات والأوهام هى التى أثبت البحث الحديث خطأها ومخالفتها للواقع ، كما أثبت أن نصف الأمراض العقلية ـ على الأقل ـ يرجع إلى أسباب عامة لها آثار ظاهرة فى جميع الأمراض على اختلاف أنواعها ؛ كالطاعون وغيره من الأمراض الوبائية، والسكر ، وتناول المواد المخدرة ، واضطراب الهضم ، واضطراب الغـدد الصماء ، وما يحدث فى الأعضاء والأجهزة الباطنية من عطب أو خلل .

١ - أسباب الأمراض العقلية :

مما لا يحتمل الشك أن لمعظم الأمراض العقلية إن لم يكن لكلها أسباباً جسمية ، وأخرى نفسية . كما أن كثيراً من الأمراض الجثمانية يرجع إلى أسباب عقلية؛ذلك لأن الإنسان ليس إلا وحدة جسمية عقلية ؛ فمن الطبيعى أن مايؤثر فيه يشمل هاتين الناحيتين الجسم والعقل . غير أن الإصابة الجثمانية ترجح فى بعض الأحيان الإصابة العقلية فيوصف المرض بأنه جثمانى . كما أن الإصابة العقلية قد ترجح الإصابةالجثمانية فيوصف المرض بأنه عقلى . فإذا وضعنا هـذه الحقيقة نصب أعيننا استطعنا أن نعرف السر فى اشتراك عوامل أو مؤثرات خاصة فى إحداث الأمراض الجثمانية والعقلية معًا.

وفى ضوء هذه الحقيقة نستطيع أن نقسم أسباب الأمراض العقلية إلى مجموعتين أو طائفتين هما : (ا) الأسباب السابقة أو المعرضة للمرض[١] . (ب) الأسباب المثيرة التى ينشأ عنها المرض مباشرة[٢] .

(١) الأسباب المعرضة :

... إن الأسباب المعرضة - كما يفهم من اسمها - هى التى تجعل الإنسان مهيأ للإصابة، معرضًا لها . وهـذه تحدث قبل الإصابة بالفعل التى تتوقف على سبب أو أسباب أخرى هى الأسباب المثيرة أو المباشرة . ولتوضيح ذلك نمثل بمرض من الأمراض الجثمانية وهو نيومونيا (مرض يصيب أغشية الرئتين) .

فمن الأسباب المعرضة للإصابة بهـا سوء التغذية ، وإدمان السكر ، والإسراف فى تناول المواد الكحولية . ولكن الإنسان لايصاب بالمرض بالفعل إلا إذا اتصلت الرئتان بالجرثومة أو الميكروب الذى ينشأ عنه المرض بالفعل .

---

(١) Predisposing Causes. (٢) Exciting Causes.

قلية ومن أهم الأسباب المعرضة للأمراض العقلية :

(١) الوراثة . (٢) السن . (٣) النوع . (٤) العوامل البيئيـة . (٥) المهنة . (٦) الإصابة السابقة .

ولنتكلم عن كل من هذه بشيء من التفصيل :

(١) الوراثة : تعد الوراثة من العوامل الهامة التى تجعل الإنسان عرضة للإصابة ببعض الأمراض العقلية . وقد وجد أن ربع عدد المصابين بأمراض عقلية أو ثلثهم أو أكثر فى بعض الحالات ينتمون إلى أسرات تشيع فيهـا الأمراض العقليـة أو الاضطرابات العصبية ؛ ذلك لأن مرض العقل يرجع فى الغالب ـ كما قلنا من قبل ـ إلى ضعف كامن فى الجهاز العصبي ، أو إلى فقد الاتزان فى تـكون هذا الجهاز .

وهنا نحذر القارئ الوقوع فى خطأين شاع بين الناس الوقوع فيهما ، وهما : (١) الغلو فى التعظيم من شأن الوراثة حتى ينسب إليها ما يجب أن ينسب إلى البيئـة من الآثار ؛ فمن الواجب فحص الحالة فحصًا دقيقًا، ودراسة تاريخ المريض حتى لا ننسب إلى الوراثة ما ينبغى أن ينسب إلى البيئة ، أو العكس . (٢) الاعتقاد بأن المرض العقلى يورث كما هو أو بصفته الخاصة . وهذه عقيدة فاسدة ؛ إذ ليس من الضرورى أن يكون ابن المعتوه مثلاً معتوهًا ، أو ابن المخبول مخبولاً ؛ فالذى يورث ليس هو المرض عينـه الذى يصاب به الأصل ، وإنما هو الاستعداد العصبي العام ، أو حالة المجموع العصبي على العموم . فإذا كان الأصل ضعيف الأعصاب ضعفًا مزمنًا ، نتيجة لإصابته بمرض عقلى ، فمن المرجح أن يكون الفرع ضعيف الأعصاب أيضا ، وأن يصاب بمرض عصبي سواء أكان هو ما أصيب به الأصل أم كان غيره .

وليس من الضرورى أن يصاب جميع الفروع بمرض عقلى ، أو يكونوا عرضة لإصابات عقلية ـ إذا كان أصلهم قد أصيب بذلك ؛ فالمشاهد أن كثيراً من أفراد

الأسرة الواحدة ينجون من خطر الإصابة التى حدثت لغيرهم من أفرادها.

(٢) السن : من الممكن أن نقول إن الفرد والأمة فى هذا الصدد متشابهان ، فالدولة تولد صغيرة ، ثم تنمو شيئا فشيئا ؛ فإذا صمدت للعواصف التى تحيط بها فى حياتها ، وخرجت من المحن سالمة إبان شبابها ، فمن المرجح أن تبقى قوية سليمة فى عهد رجولتها ، حتى إذا ما بلغت القمة كانت عرضة للتدهور . وقد تبقى قوية سليمة دهراً طويلا أو قروناً متعددة ، ولكن دروس التاريخ تعلمنا أن لكل زمان دولة ورجالا . وتتوقف مدة القوة والسلطان على أحوال الدولة والأسس التى قام عليها بناؤها ؛ فكلما قوى الأساس وصلب البناء طال أمد الدولة ، ولكن أعاصير الزمن وصروف الدهر لاتفتأ تضعضع من كيانها ، وتضعف من شأنها، حتى يأتى يوم تدرك فيه عصر الشيخوخة فيلحقها الفناء .

وهذا عينه هو شأن الفرد من بنى الإنسان ، فهو يولد كاملا سليما ولكنه صغير ضعيف فى حاجة إلى العناية والرعاية خشية أن يقع فريسة للأمراض الجسمية أو العقلية ، فإذا جاوز عصر الطفولة سليما معافى ، وقاوم أخطار المراهقة بنجاح ، وصمد لأحداث البلوغ ومشكلاته العقلية، وثوراته النفسية ـ بشجاعة ، ثم ثبت لتجارب الحياة، وتصرف نحوها تصرفا حازما سليما متزناً ـ أقول إذا تم للفرد ذلك كان من المرجح أن يعيش فى العصور التالية فى مأمن من الأمراض العقلية والصدمات النفسية الضعيفة .

وقد دلت التجارب على أن السنوات الخمس الأولى من حياة الطفل محوطة بكثير من الأخطار ؛ إذ فيها تبذر بذور الشخصية . وقد تنبت فيها أصول أمراض عقلية لا تظهر آثارها إلا فى عهد الكبر . ومن الثابت أن عصر المراهقة والبلوغ وما بعده بقليل من السنين أخطر أدوار الحياة العقلية ؛ إذ فيه تعظم نسبة الإصابة بالأمراض

العقلية ، وبخاصة جنون المراهقة Shizophrenia . ولما تؤذن شمس الحياة بالمغيب ، وتغلب جيوش الشباب جيوش المشيب ، ويبلغ الإنسان من الكبر عتيا ، يصير المرء عرضة لضعف الجسم والعقل . وقد يدركه الخبل إذا امتد به الأجل ، فيرد إلى أرذل العمر؛ لكيلايعلم بعد علم شيئا .

وكما تعترض الأمة فى حياتها أزمات اتفاقية ترهق قوتها ، ومشكلات عويصة تفت فى عضدها ؛ كالأزمات السياسية والاقتصادية ـ فكذلك تعترض الفرد فى عصور مختلفة من حياته أزمات اقتصادية ، تترتب عليها أزمات انفعالية نفسية، تضعف كيان عقله، وتزلزل أركان نفسه . وقد تودى بحياته فى لحظة ، فيصبح كأنه لم يكن .

فسنّ الشخص له تأثير كبير فى حياته . ومن الواجب الاعتداد به عند البحث عن سبب المرض ، وعند تشخيصه ، وعند علاجه .

(٣) النوع : إن نوع الشخص فى ذاته أى كونه ذكراً أو أنثى ليس له تأثير فى الاستعداد للمرض العقلى ، ولا فى حدوثه بالفعل، ولا فى الحصانة العقلية . ومع ذلك فهناك أوقات معينة تكثر فيها إصابة النساء بالأمراض العقلية ، أو يشتد فيها تأثرهن العصبي؛ كمدة الحمل ، ودور المراهقة والبلوغ ، حيث يبلغ النمو الجسمى مداه ، وحيث تحدث الانقلابات الانفعالية والوظفية .

(٤) العوامل البيئية : هذه العوامل إما عامة وإما خاصة :

فالعامة هى التى تؤثر فى الفرد باعتباره فرداً من أفراد أمة أو شعب، أو أى مجموعة من الناس ، خاضعة لظروف معينة عامة ؛ فالحياة فى المدن ـ بما يكثر فيها من جلبة أو ضوضاء ـ خليقة بأن تؤثر فى الأعصاب ، وتجعل الإنسان عرضة للإصابة بالأمراض العقلية . والحرب وما تنطوى عليه من أخطار ومغامرات وأهوال ـ جديرة بأن تزلزل الأعصاب ، وتهز كيان النفس؛ سواء بالنسبة للجنود الذين يخوضون غمار الحرب

ويقاسون ويلاتها بالفعل ، وبالنسبة للمدنيين الذين يستولى عليهم الخوف ويحيط بهم الذعر ، فيحرمهم النوم الهادئ ، ويوقعهم فى حيرة من أمرهم ، واضطراب فى شئونهم. فتوالى هذه الاضطرابات العصبية ، وتكرار تلك المخاوف والأهوال والأوهام — كثيراً ما جعل الجنود وغيرهم عرضة للجنون ، أو ذهب بحياتهم العقلية بالفعل .

وهذا من نتائج الحياة الحاضرة : حياة الحضارة والتنافس والضوضاء والبغضاء ؛ ولذا يقال: إن المرض العقلى هو مرض المدنية والحضارة ؛ يدل على ذلك قلة الأمراض العقلية بين القبائل والشعوب المتأخرة فى الحضارة ، وكثرتها بين سكان المدن والمدنيين المستمتعين بأكبر قسط من مظاهر الحياة المدنية الحديثة .

ومن المحقق أن العلاقات الاجتماعية الكثيرة ، والواجبات المدنية ، التى تفرضها على الناس ظروف الحضارة — من أشد العوامل تأثيراً فى الحياة العقلية . ومن المحقق أيضاً أن كثيراً من الأمراض العقلية ينشأ فى الغالب عن عجز أو نقص فى انسجام الفرد مع بيئته الاجتماعية، أو عن ضعف فى تهيئه لمقاومة ظروف هذه البيئة ، وتلبية طلباتها ، والقيام بما تفرضه عليه من واجبات .

ولا ينبغى أن يستنبط من هذا أن حياة المدنية السائرة فى طريق نموها على أسس قويمة تعد فى ذاتها من الأسباب المعرضة لضعف العقل أو المرض العقلى ؛ فالغرض أن من ينشئون فى أحضان المدنية، وتتكون لديهم استعدادات متنوعة مركبة متشابكة ، وتُفرَض عليهم واجبات متزايدة متشابكة أيضاً — يكونون أكثر تعرضا للاضطرابات العصبية والأمراض العقلية من أولئك الذين ينشئون فى أحضان البداوة والتقشف، فيكون تفكيرهم محدوداً ، وتكون الواجبات التى تفرضها عليهم بيئتهم محدودة كذلك . مَثَل هؤلاء وأولئك كمثل الآلة الميكانيكية ؛ إذ كلما كثرت أجزاء الآلة، وتعددت أجهزتها ، وتنوعت وظائفها ، وتعاونت الأجهزة بعضها مع بعض على أداء

الوظيفة الأساسية للآلة ، كانت أكثر تعرضاً للعطب والفساد من آلة ساذجة قليلة الأجزاء محدودة الوظيفة .

والمشاهد أن أوساط الناس الذين يمثلون فى المجتمع المتمدين منزلة بين المنزلتين ، ويسلكون فى الحياة مسلكا وسطاً ـ هم أقل طوائف المجتمع تعرضاً لأخطار الأمراض العقلية . أما من يمثلون المنزلة الدنيا فى المجتمع، وهم أشد أفراده فقراً، فهم أشد الطبقات تعرضاً لأمراض العقل؛ لأن فقرهم يحملهم على أن يجهدوا أنفسهم فى سبيل الحصول على أقواتهم، وأن يخضعوا لظروف قاسية منها : نقص التغذية المقومة للصحة ، والميل إلى تناول المواد المخدرة ، والعيش فى بيئات لا هى صحية ولا هى خلقية .

ونجد كثيراً من مرضى العقول فى الطرف الأعلى بين أفراد الطبقات الراقية الذين يعيشون عيشة سهلة لينة ؛ ويعملون من الأعمال ما لا يستدعى تفكيراً ويميلون إلى الانغماس فى اللذات والشهوات ، لاهمّ لهم إلا العناية بقضاء رغباتهم الخاصة ، وإشباع نهمهم الحيوانى .

أما العوامل البيئية الخاصة : فأهم من العوامل العامة (١) لما لها من بالغ الأثر فى حياة الفرد العقلية و (٢) لأنه من الممكن إلى حد كبير جداً تجنبها . وتكاد هذه تنحصر فى فشلنا فى إخراج أطفال مزودين بقسط مقبول من الصحة العقلية والاتزان الوجدانى معاً ، ومن مظاهر ذلك الفشل :

(١) عدم نجاحنا فى معاونة الأطفال على التحرر من سلطان الآباء والأمهات .

(٢) القسوة فى تأديب الأطفال والشدة عليهم بدون مسوغ.

(٣) تدليل الأطفال والاستسلام لرغباتهم استسلاما تاماً .

(٤) الإهمال فى التربية الجنسية إهمالا ترتب عليه انغماس الشبان فى الأحلام

الجنسية ، وفشلهم فى إعداد أنفسهم لحياة جنسية طيبة طاهرة .

(٥) الصراع الدائم بين الوالدين على مرأى ومسمع من أولادهم .

ومن المحقق أن لهذه العوامل البيئية الخاصة وما يشبهها آثاراً بليغة فى حياة الأطفال العقلية ، حتى بعد أن يصيروا رجالا ونساء . فمن الخطأ أن ننظر إليها شذراً ، ولا نعيرها أكبر قسط من عنايتنا .

٥ — المهنة : قد يكون للمهنة التى يتولاها الفرد أثر مباشر أو غير مباشر فى إصابته بمرض عقلى ؛ فالمهن المختلفة التى لها علاقة بالمواد الكيمياوية قد كثرت وتنوعت ، وأدى انتشارها إلى كثرة المواد السامة المعدنية أو السائلة أو الغازية ، التى تتأثر بها أجهزة العمال العصبية ، وتؤدى إلى إصابتهم بأمراض جثمانية أو عقلية . ونذكر من بين هذه المواد السامة الرصاص الذى يؤثر فى الأعصاب ، ويضعف العقل .

ومن المهن المعرضة للإصابات العقلية العمل فى الحانات ، والملاحة البحرية ، والطب . وهذه المهن فى ذاتها لا تجعل المرء عرضة للإصابات العقلية ، ولكنها مغرية تدفع أصحابها إلى تناول المواد المضرة بالعقل ؛ فالعامل فى الحانة قد تدفعه ظروفه الخاصة إلى تذوق ما يقدمه للناس من المواد الكحولية ، والملاح قد يغريه بعده عن وطنه بالتجرد من قيود التعفف فينغمس فى حمأة الرذيلة ، والطبيب قد يغريه الإلف ، وتدعوه التجارب ، ويحمله التعب على أن يتناول شيئاً من العقاقير الطبية المضرة التى يصفها للمرضى .

هذا وقد دل البحث على خطأ من يقولون إن تناول الأعمال الشاقة المتعبة من عوامل التعرض للمرض العقلى ؛ فالواقع أن العمل الشاق لا يكون من الأسباب المعرضة للأمراض العقلية إلا إذا صحبه قلق نفسى ، أو حرص شديد ، أو تفكير زائد على الحد المعقول فى المستقبل ، وما يكنه من احتمالات ؛ فإن هذه قد تحمل المرء على أن يغلو فى إجهاد نفسه ، ويتعود عادات فكرية غير صحية ، ويتناول أعمالا لا طاقة

له بها ، فيؤدى ذلك إلى انحلال قواه الجسمية والعقلية ، ويكون كالنبت الذى لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى .

٦ — الإصابة السابقة : إن مثل الأمراض العقلية فى ذلك مثـــل الأمراض الجثمانية ، فـكما أن الإصابة ببعض الأمراض الجسمية مرة يسهل سبيل الإصابة بها مرة ثانية كأمراض القلب ، فـكذلك الإصابة بمرض عقلى ، فقد تجعل المرء عرضة للإصابة بها مرة أخرى . وكما أن من الأمراض الجثمانية التى تحدث فى دور الطفولة ما يكسب الجسم مناعة وحصانة فلا يصاب به مرة أخرى ؛ كبعض الحميات والجدرى، فـكذلك بعض الأمراض العقلية التى تـكسب العقل متاعة فلا يصاب بها مرة أخرى إلا فى حالات نادرة .

هذه أهم الأسـباب المعرضة للأمراض العقلية ، ومن الواجب أن يعتدّ بها : (١) عند تشخيص المرض و (٢) عند معرفة سببه المباشر و (٣) عند العلاج . وهذه فى الواقع أمور مترابطة يتصل بعضها ببعض اتصالا وثيقاً ، فمن عرف المرض وأدرك سببه سهل عليه علاجه علاجاً مرضياً .

ونحن إذا درسنا حياة كل فرد فى ضوء هـذه الأسباب وجدنا أنه لا يكاد أحد ينجو من التأثر بسبب منها أو أكثر ، وعلى هذا نـكون جميعاً تقريباً عرضة للإصابة بأمراض عقلية ، وهذا حق لاريب فيه ؛ غير أن السواد الأعظم من الناس تشتد فيهم القدرة على المقاومة ، فتتغلب على الأسباب المعرضة للمرض .

ونوجه نظر القارئ مرة أخرى إلى أن يعلم أن أى سبب مُعَرِّض — مهما يبلغ من القوة والسلطان — لا يكفى مجرد وجوده لإحداث المرض بالفعل ، بل لابد أن يضاف إلى ذلك سبب أو أكثر من الأسباب المثيرة أو المباشرة، التى هى القوى الفعالة المسئولة مباشرة عن ظهور أعراض المرض، وهى التى نحدثك عنها الآن :

(ب) الأسباب المثيرة أو المباشرة :

نعنى بهذه الأسباب التى تحدث الأمراض العقلية ، أو تعد مسئولة عن حدوثها بصفة مباشرة ، ولذا تسمى: «بالأسباب المثيرة Exciting Causes ». وهى بالطبع أهم من الأسباب المعرضة ؛ إذ بدونها لا توجد الأمراض، ولكنها من حيث الترتيب الزمنى متأخرة عن الأسباب المعرضة كما هو ظاهر .

وتوصف هذه الأسباب بأنها نفسية جثمانية ؛ أى أنها مزيج من عناصر جثمانية وعقلية ، فليست عقلية بحتة ، ولا جثمانيه بحتة ، غير أن بعضها يغلب عليه الصبغة الجثمانية ، والبعض الآخر يغلب فيه التأثير النفسى أو العقلى . وكلمة « يغلب » هنا ضرورية فى الحالين ؛ إذ لو قلنا بأن من الأسباب ما هو جثمانى بحت ، وما هو عقلى بحت ، لكان ذلك منافياً للحقيقة المقررة ، وهى أن الإنسان وحدة متماسكة لا تنقسم إلى جسم وعقل ، ولكنها مزيج من جسم وعقل ، فما يؤثر فيه لا بد أن يكون كذلك ؛ إذ من الثابت أن المؤثر لا بد أن يكون ملائماً للأثر، أى أن السبب والمسبب لا بد أن يكونا متجانسين .

فالحمى مثلا من الأسباب المباشرة لبعض الأمراض العقلية ، ولكننا نجد بالبحث أنها تؤثر فى الجسم أكثر مما تؤثر فى العقل ؛ أى أن آثارها الجسمية أقوى من آثارها العقلية ؛ إذ هى تؤثر أولا وقبل كل شىء فى الأغشية الجسمية، وتؤثر بصفة ثانوية فى الشعور فيضطربُ ، وقد يعترى الإنسان نوع من الخبل والهذيان ، يصحبه ـ فى كثير من الأحيان ـ ثورة انفعالية قوية هى التى نسميها « ثورة المحموم » . فالحمى سبب جثمانى عقلى ، ولكن يغلب فيه التأثير الجثمانى .

وقلق النفس من الأسباب العقلية والجثمانية المثيرة للمرض العقلى التى يغلب فيها التأثير العقلى ؛ أى أن مظاهره عقلية أكثر من أن تكون جثمانية ، فالقَلِق لا يستطيع

أن يضبط نفسه أو يحصر ذهنه ، أو يفكر تفكيراً سليما ، ولكنه مع ذلك يتأثر تأثراً جثمانياً يظهر فى امتقاع اللون ، وعنف النبض فى الأوعية الدموية التى بالعنق ، وسرعة التنفس مع خفته ، إلى غير ذلك من المظاهر التى يراها الإنسان واضحة جلية فيمن يعتريه القلق النفسى الشديد؛ كما هى الحال فيمن يقف موقفاً خطابياً محرجاً ، وحال من يشفق على مريض فى حالة خطرة ، أو من يترقب أخباراً عن غائب .

فى ضوء هذا التمهيد نذكر من بين الأسباب التى يغلب فيها التأثير الجثمانى :

(١) الحمى وغيرها من الأمراض المعدية الحادة .

(٢) التعب الشديد الذى يصل إلى درجة الإعياء .

(٣) تخدر الأعصاب بتناول المواد والعقاقير المخدرة .

(٤) تخدر الجهاز العصبى وغيره من الأجهزة الباطنية ؛ فهذا قد يؤدى إلى اضطراب عملية الهضم ، وامتصاص الطعام الضرورى لتقوية الدم وتغذية أنسجة الجسم ، وأغشيته المختلفة ؛ وكثيراً ما يؤدى اضطراب عملية الهضم إلى اضطراب الأعصاب ومرض العقل .

(٥) التسمم المزمن الناشئ عن بعض الأمراض الحادة ؛ كالسل ، والأنيمية ، ومرض السكر . فهذه وما يشبهها إذا عاناها المريض مدة طويلة فسممت جسمه ، واضطرته إلى أن يقلل من نشاطه الحيوى ـ قد تكون من الأسباب المباشرة للسلوك العقلى الشاذ .

(٦) الأمراض العصبية الحادة المزمنة التى تؤثر فى المخ تأثيراً مباشراً ، فتضعف العقل أو تؤدى إلى أمراض عقلية وبيلة ، لما بين المخ والتفكير من علاقة وثيقة .

(٧) التقرح الباطنى وخصوصاً فى منطقة الدماغ ، فهذا قد يؤثر فى المخ فى دور الطفولة أو ما بعده ، فينشأ عنه شذوذ فى السلوك العقلى .

(٨) ضربة الشمس الحادة ؛ فهذه قد ينشأ عنها اضطراب مستمر فى توزيع الحرارة على الجسم، وثورة انفعالية يطول أمدها . وهذا وذاك مما يؤدى إلى فقد الاتزان العقلى.

هذا عرض موجز للأسباب المباشرة التى يغلب عليها التأثير الجثمانى . ومن أراد مزيد بيان ، فليرجع إلى كتب الطب الجثمانى ، فليس مما يعنينا كثيراً عرضها عرضاً تفصيلياً مسهباً .

الأسباب المباشرة التى يغلب فيها التأثير العقلى .

وتمتاز الأسباب التى ذكرناها آنفا بأن آثارها مادية، يسهل فى كثير من الحالات على الطبيب الماهر تعرفها وتعيينها بالفحص الدقيق . أما الأسباب التى يغلب فيها التأثير العقلى، فلكونها عقلية نفسانية أكثر من أن تكون جثمانية مادية ، نجد من الصعب تعريفها وتحديدها ؛ فقد يحتاج ذلك إلى بحث طويل، وتتبع لحياة المريض فى أدوارها المختلفة ، وبخاصة فى دور الطفولة الأولى، التى أثبتت التجارب أن كثيراً من الأمراض العقلية والعقد النفسية تبذر فيه بذورها . ولا يستطيع تعرفها وتحديدها على وجه مرضى إلا العالم النفسانى الخبير ، الملم بطرائق العلاج النفسانى المختلفة .

ولما كان معظم هذه الأسباب يرجع فى النهاية إلى اضطرابات وجدانية أو انفعالية، كان لزاما علينا أن نتكلم بشىء من التفصيل والإسهاب عن الانفعالات وتأثيرها فى الحياة العقلية فنقول :

إن الانفعالات على اختلافها ضرورية لتكوين الشخصية ، ولا بد منها للاحتفاظ بحياة عقلية عادية متزنة ، مثلها فى ذلك مثل القلب الذى إذا أصلح صلح الجسد كله ، وإذا فسد فسد الجسد كله ، والذى لا بد منه لتموين الجسم، وللاحتفاظ بحياة جسمية عادية منسجمة .

فإذا توقفت الانفعالات عن العمل ، ولم يظهر لها أثر فى حياة الإنسان ـ كما فى بعض

حالات الشيخوخة ، والخمود العقلى ـ تبع ذلك توقف العقل عن العمل ، أو ـ على الأقل ـ فسدت الحياة العقلية ، واعتراها شىء من الخمول والجمود .

فكما أن عجز القلب عن أداء وظائفه يؤدى إلى موت الجسم ، كذلك عجز الانفعال عن أداء وظائفه يؤدى إلى موت العقل ، أو ـ على الأقل ـ إلى فساد الحياة العقلية وخمودها ، ولذا يقال : « إن الانفعال هو قلب العقل » .

ولا غرو ؛ فكل انفعال قوة دافعة فعالة ، عميقة التأثير فى السلوك الإنسانى والإحساس الفنى والشعور الأدبى ؛ فلولا الانفعالات ما استطاع المصور أن يصنع صورة تخلب الألباب ، ولا استطاع المثال أن يصنع من الرخام أو المرمر تمثالا تهوى إليه الأفئدة ، ولا قدر الشاعر أن يصوغ من الألفاظ والعبارات قصيدة تلهب الخيال وتوقظ العاطفة ، ولا أمكن الكاتب أن يصدر قصة تهز المشاعر وتلعب بالألباب ، ولا قدر الموسيقار أن يؤلف بين الأصوات والنغمات ، فيخرج منها ألحانا شجية تطرب الأسماع وتهز أوتار القلوب .

فإذا كان الخيال هو مصدر الفن ، فإن الانفعال هو السراج الوهاج الذى يضىء جوانب الخيال ، أو هو الشعلة الموقدة التى تلهب نار الخيال وتنير له طريق الإنتاج .

وليس من باب المغالاة أن نقول إن الانفعالات هى الدوافع الحيوية التى تصدر عنها أعمال الإنسان وأحكامه ، دون شعور منه فى كثير من الحالات . ومن المؤكد أنها هى وحدها المسيطرة على حياة الطفل . وإنك لو حللت أعمال الجماهير لوجدت أنها ترجع فى النهاية إلى الثورات الانفعالية ، التى هى مصدر الثورات الاجتماعية ، ومثيرات الحروب الطاحنة ، وهى التى بسببها يفقد الملوك تيجانهم وعروشهم ، بل رءوسهم ، وإذا كان بعض الساسة ينجحون فى سياستهم بتفكيرهم وذكائهم فذلك قليل نادر ؛ إذ أن الغالب ألا ينجح الزعيم فى حياته إلا إذا كان متوقد العاطفة قوى الشعور

الوجدانى . وإن الحضارة التى تقوم على التفكير المحض المجرد من التأثر العاطفى قلما تبقى طويلا ، وإن بقيت أعوزها التقدم والرقى .

ومن البديهى أن القوة الانفعالية قد توجه الإنسان إلى الخير ، وقد توجهه إلى الشر ، وأن السلوك الناشىء عنها ـ سواء بالنسبة للفرد ، وبالنسبة للأمة ـ قد يكون نافعاً وقد يكون خطراً مضراً ؛ فثورة انفعالية قوية قد تزلزل العقل وتهد كيانه ، وثورة انفعالية حادة جامحة قد تودى بالأمة ، وتوردها موارد الهلاك ، وتجلب لها الخراب والدمار ، أو الذل والعار .

ولا سبيل إلى السلوك القويم إلا بتحكيم العقل ، وضبط الانفعالات الطائشة ، وتوجيهها التوجيه السليم . ومع أن ذلك سهل ميسر ، فكثيراً ما يسبق السيف العذل ، ويندفع الإنسان فى تيار الثورة ، ويسرع إلى العمل قبل أن يحكم عقله ، ويفكر فى عواقب فعله .

ومع هذا فمن الممكن ـ بالتدريب والتعود ـ أن يكتسب الإنسان فضيلة ضبط النفس وكظم الغيظ ، وأن يكون سيداً لانفعالاته ، قابضاً على أزمتها ، لا عبداً لها خاضعا لسلطانها ؛ فإن الاستسلام للانفعالات ، والخضوع لسلطانها من صفات الطفل البارزة ، التى لا ينبغى للبالغ الرشيد أن يتصف بها .

ولو استطاع كل فرد أن ينجح فى تهذيب انفعالاته ، وتحكيم فكره فى وجدانه ـ إلى حد ما ـ ما أصاب العالم ما أصابه من نكبات متواليات ، ولتقدم النوع الإنسانى بخطى واسعة فى سبيل السلم والسعادة ، ولقل ما تعانيه البشرية الآن من أنواع الذل وألوان الشقاء ، بل لقلت الأمراض العقلية إلى أقصى حد ، وسلم الإنسان من كثير من الأمراض العقلية الوبيلة .

نريد بعد هذا أن نعرض بعض حقائق لها علاقة بالانفعالات ، ولها آثار

ظاهرة فى حياة الجسم والعقل معاً ، فمن هذه الحقائق :

(١) أن أى نزعة انفعالية مهما تبلغ من الضعف تترك وراءها ، أو تصحبها ، آثار جثمانية ملائمة لها قوة وضعفاً . وهذا هو مايسمى بالأثر الجثمانى للانفعال .

(٢) أن الآثار الجثمانية — إذا استمرت قوية — تزيد فى قوة الانفعال ، وذلك كما فى حال الانفعال الحاد الثائر ، مثل الغضب الشديد الذى تصحبه ثورة جثمانية شاملة لجميع أجهزة الجسم تقريباً ، فالغضب يثير الجسم ، وثورة الجسم تقوى الغضب ، وهكذا ، فيظل الإنسان لعبة فى أيدى أجهزته الجسمية من جهة ، وأيدى انفعالاته من جهة أخرى حتى تهدأ ثائرة الغضب ، أو تستنزف قوى الجسم ، فيعتريه خمود وهمود قد يخمد معه الانفعال نفسه . وهذا هو ما يسمى بالتأثير الجثمانى فى الانفعال .

(٣) أن العقل الإنسانى مزود بقوة احتمال عظيمة يستطيع معها أن يحتمل النزوات الانفعالية القوية ، ويصمد لها مدة طويلة . ولكنه مع ذلك قد يضعف أمام الانفعالات الضعيفة التى تبقى مدة تقلقه ، وتستنفد نشاطه بالتدريج . وإن توالى ثورة هذه الانفعالات الضعيفة الطويلة الأجل قد يضعف العقل ، ويوهن قدرته على الاحتمال ، فيكون عرضة للانهزام أمام أى ثورة انفعالية حادة ، وإن قصر أجلها . فالانفعالات الضعيفة الطويلة الأجل أشد تأثيراً فى العقل من الانفعالات الحادة الوقتية .

(٤) أن قوى النفس البشرية ونزعاتها الانفعالية ، يعوزها فى الغالب الانسجام والتوافق ؛ وذلك راجع إلى اختلاف النزعات الغرزية وتضاربها فى الاتجاه ؛ فالغرائز الفردية قد تعارض الغرائز الاجتماعية ، وغريزة حب الظهور قد تعارض غريزة حب الخضوع ، وغريزة حب التملك قد تعارض الغريزة الاجتماعية وهكذا . وقد ينشأ من تضارب هذه الميول تفكك فى الشخصية ؛ فإن التضارب العقلى لا يستمر دائماً أبداً مقلقاً للنفس مهدداً لكيانها ، فإما أن يتم التوافق بين الرغبات المتخالفة ، فتتآلف

بالطريق العادى، وتنحل العقدة ، وإما أن يشتد النزاع، ويستعصى التوفيق فتنال بعض الرغبات مآربها على حساب الحياة العقلية ، فيختل ميزان العقـــل والجسم، وتنشأ الأمراض العقلية أو الجسمية .

ومن الأمراض الناشئة عن هـذا الصراع ما أصاب الجنود الذين عانوا ويلات الحرب الأوربية الأولى ، وصعقتهم قنابلها، وأزعجهم قصف مدافعها ، فكان هذا وذلك سبباً فى أن فريقاً منهم أصبحوا ولهم أعين لا يبصرون بها ، وفريقاً آخر أمسوا ولهم آذان لا يسمعون بها ، وفريقاً ثالثاً صاروا ولهم أنوف لا يشمون بها . وكان ذلك بمثابة دفاع النفس عن كيانها ، وحل الصراع بين غريزة الدفاع عن النفس والميل إلى الشجاعة والقيام بالواجب فى ميادين القتال ؛ ففقد البصر يجنب النفس رؤية المناظر الوحشية المؤلمة ، وفقد السمع يجنبها سمع دوى المدافع والقنابل ، وفقد الشم يحول بينها وبين شم الروائح الكريهة المنبعثة من جثث القتلى التى تبقى فى الخنادق أو فى العراء مدة طويلة؛ إذ لم يكن من الممكن دفنها .

وليس هـذا الحل المؤلم للصراع النفسانى بمقصور على الحياة غير العادية ، كحياة الجنود فى ميادين القتال ، بل إنه قد يحدث فى الأحوال العادية ؛ فكثيراً ما يصاب الرجل أو المرأة بأمراض جثمانية ، أو عقلية ـ نتيجة لعدم النجاح فى مصارعة ظروف الحياة وتقلباتها ، وذلك كما فى حال من يخفقون فى الحب أو فى الزواج ، أو من يفشلون فى الحصول على مآربهم الشخصية؛ من مناصب اجتماعية ، أو درجات مالية ، أو زعامة سياسية ، أو من يجزعون جزعا شديداً لموت قريب أو حبيب ، أو من يتألمون لتدنس شرفهم ، وتلوث سمعتهم .

كل هذه وغيرها من متاعب الحياة التى لا حد لها ، تسبب للإنسان القلق النفسى،

الذى إذا طال عليه الأمد أوْهَنَ قدرة العقل على المقاومة ، وانتهى أمره باضطراب الشخصية وغيره من الأمراض العقلية .

ولا يفوتنا أن نذكر هنا ما لكبت الانفعالات ، وسوء معاملة الأطفال ، والحجر على حريتهم فى دور الطفولة من آثار سيئة فى الحياة العقلية فى عهد الكبر ؛ ذلك لأن كبت الانفعالات وعدم التنفيس عنها فى الصغر قد يؤدى إلى تكون العقد النفسية ، التى تبقى كامنة فى النفس ، إلى أن آثارها فى عهد الكبر فى توجيه السلوك توجيهاً شاذاً ، أو فى الإصابة بأمراض عصبية أو عقلية وخيمة العاقبة .

تقسيم الأمراض العقلية :

إن خير أساس نتخذه لتقسيم الأمراض العقلية هو السبب الرئيس الذى ينشأ عنه المرض ، فعلى هذا الأساس تنقسم الأمراض العقلية ثلاثة أقسام هى :

(١) الأمراض العضوية : وهى التى ترجع إلى خلل فى تكوين المخ وأنسجته وأوعيته ، مثال ذلك : الأمراض العقلية التى تنشأ عن الشيخوخة أو الشلل الجزئى .

(٢) الأمراض الوظفية : وهى التى يصحبها عجز عضو من الأعضاء عن القيام بوظيفته مع وجود خلل فيه ، مثال ذلك : الجنون بصوره المختلفة ، ومنها جنون المراهقة والهوس ، والصرع ، والخوريا ، والميلانخوليا .

(٣) الأمراض التسممية : وهى التى يصحبها تسمم فى بعض أعضاء الجسم ، كالأمراض الناشئة عن التسمم بالمواد الكحولية . ولا داعى هنا للإطالة فى تعداد هذه الأمراض ، وبيان أعراض كل منها . فمن أراد مزيد بيان فى ذلك فليرجع إلى المطولات . فلنكتف بهذا العرض الموجز لأسباب الأمراض العقلية وأقسامها فى رأى معظم أطباء العقول فى العصر الحاضر . ولننتقل إلى موضع لا يقل أهمية فى نظر هؤلاء الأطباء عن العلاج نفسه ، ذلك هو :

اختبار المريض وتشخيص مرضه :

لم يعد الطبيب النفسانى يكتفى بنظرة سطحية إلى المريض ، أو يقنع باختباره هو وحده اختباراً مقصوراً على حالته الحاضرة ، بل يرى من الواجب عليه أن يتبين الأمور الآتية ، ويدركها تمام الإدراك ـ قبل الشروع فى العلاج ، وهى :

(١) كنه المرض بالضبط .

(٢) المراحل التى مر بها المرض منذ أن ظهرت أعراضه إلى أن وصل إلى ماوصل إليه الآن .

(٣) تاريخ حياة المريض بوجه عام، وما عسى أن يكون قد حدث له من أحداث خطيرة، أثرت فى مجرى حياته العادى بوجه خاص .

(٤) تاريخ حياة الأسرة التى ينتمى إليها المريض ، ومدى شيوع هذا المرض أو مايشبهه بين أفرادها .

ومن الضرورى ألا يعتمد الطبيب على المريض وحده فى وصف مرضه ؛ فقد يدعى أنه سليم معافى؛ وأن حياته العقلية عادية ، لاتشوبها شائبة شذوذ، وأن خطواته فى الحياة سديدة موفقة ، وأن «تدبيره لقتل مضطهديه ومعارضيه سائر فى طريق النجاح»؛ ولا غرو فالمجنون كثيراً مايعد نفسه من أعقل الناس، وأصحهم تقديراً، وأحزمهم تدبيراً .

وكذلك لا يستطيع المريض أن يسرد تاريخ مرضه سرداً كاملا مستوفياً ؛ لأن الصراحة قد تعوزه . والذاكرة قد تخونه ، والخيال قد يلعب دوراً مشوهاً للحقائق.

ومن باب أولى لا يستطيع المريض أن يقص تاريخ حياته منذ نشأته ، ولا أن يذكر تاريخ أسرته ، ولا أن يبين من أصيب بمرضه منهم ومن لم يصب . فمن الواجب أن يرجع فى ذلك كله إلى الأقارب والأصدقاء، المتصلين بالمريض، المتتبعين لتطور مرضه وتقلبات أحواله ، العارفين بتاريخ حياته ، وتاريخ حياة أسرته ؛ فهؤلاء هم أقدر على

الوصف الدقيق المبين لما قد يُخفى المريض أو يَخفى عليه من أسرار ، ومايشذ عن ذاكرته من حوادث .

وإنما كان من الضرورى معرفة تاريخ المرض ، لأن لكل مرض عقلى تاريخاً معيناً وأدواراخاصة ، لا بد من معرفتها لتعيينه بالضبط . ولا يكفى العلم بالأعراض ؛ لأن هذه متشابهة فى أمراض مختلفة كما فى أنواع الميلانخوليا . ومعرفة حياة المريض نفسه فى الماضى كثيراً ما تكشف القناع عن سبب المرض ، كما فى الأمراض الناشئة عن العقد النفسية التى تكونت فى عهد الطفولة .

والإلمام بتاريخ الأسرة قد يساعد على تعرف كنه المرض ، وبذلك يكون له أثر قيم فى المعالجة .

ومن المهم جداً فى فحص حالة المريض النفسية الخاصة العناية بالمظاهر الآتية :

(١) مظهر المريض العام ، وسلوكه ، وطرائق معاملته غيره .

(٢) مجرى تفكيره العام ، والأفكار التى تتوارد على ذهنه .

(٣) مدى ما بين أفكاره من تضارب أو انسجام .

(٤) ما لديه من مبادىء أو أفكار تقلق نفسه وتشغل باله .

(٥) مدى مقدرته على دقة البحث وعمق التفكير، والجد فى حل مايعترضه من مشكلات الحياة .

(٦) مدى قدرته على سرعة التلبية أو التأثر بما يحيط به من مؤثرات طبيعية أو اجتماعية، والاستجابة لها .

(٧) مسلكه فى الحديث وأسلوبه فى التخاطب أو المناقشة .

ويتوقف النجاح فى إدراك هذه الأمور تمام الإدراك على مهارة الطبيب المعالج وبعد نظره ، ودقته فى مراعاة الأسس التى يقوم عليها العلاج النفسانى التى نعرضها عليك الآن : —

الفصل التاسع

الأسس التى يقوم عليها العلاج النفسانى

لا شك أن فهم الطرق المتبعة الآن فى العلاج النفسانى على وجهها الصحيح يتوقف على معرفة الأسس العلمية التى يقوم عليها العلاج بالطرق النفسانية المختلفة ـ سواء أكان علاجاً لأمراض نفسية أم كان علاجاً لأمراض جثمانية .

وأول هذه الأسس وأجدرها بالتقديم هو ما بين الجسم والعقل من علاقة ؛ فقد أصبح مما لا مجال للشك فيه الآن أن هناك علاقة وثيقة بين الجسم والعقل ؛ أى بين الحالات الجثمانية المادية والحالات العقلية أو النفسية . وقد أدرك هذه العلاقة أرسطو وأقرها بقراط ، وشرحها جالينوس ، وأفاض فى بيانها وشرحها فلاسفة العرب ، وقفى على آثارهم الفلاسفة المحدثون ، وفى مقدمتهم ديكارت . ومعنى هذه العلاقة أن الأحداث العقلية تؤثر حتما فى الأحوال الجسمية ، وبالعكس ؛ أى الأحداث الجسمية تؤثر فى أحوال العقل ؛ فالمرض الجسمانى يؤدى حتما إلى مرض عقلى من نوع ما . والأمراض العقلية تنشأ عنها أمراض جثمانية . وصحة الجسم بوجه عام ، والمجموع العصبى بوجه خاص ـ تؤدى إلى سلامة العقل . كما أن صحة العقل بمعنى سلامة التفكير ومطابقته للمبادئ القويمة ، والعقائد الصحيحة ـ تؤدى إلى سلامة الجسم وخلوه من الأمراض ؛ فقديماً قيل : « العقل السليم فى الجسم السليم » . والآن يقال أيضاً : « إن الجسم السليم لا يكون إلا مع عقل سليم » .

ويقتضى المقام أن أسهب قليلا فى الاستدلال على صحة هذه النظرية ، التى أصبحت

الآن جزءاً لا يتجزأ من علم النفس الحديث ، والحجر الأساسى من بناء علم العلاج النفسانى .

ولنبدأ بذكر مجموعة من الأدلة تثبت تأثير الأحوال المادية الجسمية فى سير العقل ، والأعمال العقلية ، ثم نأتِ بأدلة أخرى تثبت العكس ؛ أى تدل على تأثير الأحوال العقلية فى الجسم والوظائف الجثمانية .

فمن النوع الأول :

(١) أن أى خلل مادى مباشر ، أو ضعف ، أو اضطراب فى الجهاز العصبى المركزى ـ يتبعه خلل فى العقل أو التصرفات العقلية .

(٢) ما ثبت بوجه قطعى من أن الأغذية والعقاقير الطبية ، والإفرازات الغدية ، والمواد المخدرة ـ تؤثر فى العقل ؛ فقد دلت التجارب على أن تغيير الأغذية تغييراً خاصاً يحدث تغييراً كبيراً فى الأمزجة . وقد لاحظ بعض الأطباء أن إطعام القتلة المجرمين نوعاً خاصًّا من الطعام يخفف من ميلهم إلى الإجرام ، وأن تناول بعض العقاقير والأدوية باستمرار يؤدى إلى تغيير محسوس فى الأمزجة ، وتقدم فى الأخلاق ، وبعد عن الإجرام . ومن النتائج التى وصل إليها الأطباء فى العصر الحديث أنه من الممكن تنظيم الإفرازات الغدية ، وتكميل ما فيها من نقص ، ونقص ما فيها من زيادة ، وذلك بحقن الدم بمواد تقوى الضعيف ، أو تضعف القوى من تلك الإفرازات . وبذلك يمكن تعديل الأمزجة ، وتغييرها إلى حد كبير جداً ، ويتحقق ما تنبأ به ديكارت فى القرن السادس عشر حيث قال : « إن العقل يتأثر بالأمزجة ، وبالحالة التى عليها أعضاء الجسم لدرجة أنه إذا كان من الممكن أن نجد وسيلة بها نجعل الإنسان على العموم أعقل وأقدر وأعلى منزلة مما وصل إليه حتى الآن ، فإنى أعتقد أنه من الضرورى أن نبحث عن هذه الوسيلة فى عالم الطب . »

(٣) ما يلاحظ من التعب العقلى بعد القيام بأعمال جسمية مرهقة .

(٤) ماثبت من أن الأمراض الجثمانية الحادة ، والحميات الشديدة ـ تتبعها أمراض عقلية، أوعلى الأقل ضعف عقلى حقيقى . ويرى الدكتور محمد ولاية بك أن لكل نوع من أنواع الجنون سببين أو أكثر من أسباب ثمانية هى : (١) تناول الموادالسامة، (٢) ضعف الأعضاء التى تقاوم تأثير هذه المواد السامة ، (٣) عدم تناول مواد زلالية ذات قيمة غذائيـة عالية أو عدم هضمها ، (٤) اختلال وظائف الهضم ، (٥) عدم وجود كميات كافية من الفيتامين فى أنسجة الجسم ، (٦) قلة الأملاح المعدنية فى الأنسجة ، (٧) اختلال وظائف الغدد الصماء ، (٨) أسباب أخرى متنوعة ؛ كارتجاج المخ ، وضربة الشمس ، وتناول المواد المخدرة .

(٥) التجارب المتنوعة التى أجراها العلماء على بعض أفراخ الحيوان فى المعامل السيكولوجية لإثبات هذه النظرية .

(٦) ما يلاحظ من أن تناول طعام شهى ، أو شراب لذيذ ـ يريح النفس ، وأن الاستحمام بالماء البارد فى الصيف، وبالماء الفاتر فى الشتاء ـ يهدئ الأعصاب، ويسر النفس.

ومما يثبت تأثير الأحوال العقلية فى الأحوال الجثمانية :

(١) ما يشاهد من تأثير الحالات الوجدانية والانفعالات الحادة فى الجسم بوجه عام ، كالاضطرابات المختلفة التى تحدث فى أجهزة الجسم ، وكحمرة الوجه عند الخجل وصفرته عند الوجل ، والارتعاد عنـد الخوف ، وتقوّس الظهر أو انحناء الكتف عند الحزن ، والحركة والغناء عند السرور .

(٢) مالحظ من تأثير تكرار الانفعالات الحادة فى صحة الجسم . وأذكر بوجه خاص الخوف ؛ فكثير من الممثلين والممثلات مثلاً يعتريهم الذعر عند الظهور لأول مرة أمام الجمهور ، فيغمى عليهم ، أوتعتريهم نوبات عصبية ، فيتلعثمون ، ويضطربون

اضطراباً شديداً . وكذلك الغضب الذى قد يودى بحياة الغضبان إذا خرج عن حدوده الطبيعية . وقد شرحنا ذلك فيما مضى شرحاً وافياً .

(٣) مايشاهد من اضطراب الإنسان عند قيامه بعمل من الأعمال إذا فكر فيه وفى كيف يقوم به ؛ فالذى يحاول ملاحظة نفسه وهو يمشى - تضطرب حركات رجليه. والذى ينتبه إلى نفسه عند القراءة ، أو الكتابة ، أو الخطابة ليعرف كيف يقرأ ، أو يكتب ، أو يخطب - لا يجيد القراءة ، ولا الكتابة ، ولا الخطابة . ومن يحاول أن يلاحظ كيف ينام ، أو متى ينام فقد يفارقه النوم ، ويلازمه الأرق .

(٤) ما دلت عليه التجارب دلالة لا تحتمل الشك من تأثير الإيهام ، أو الإيحاء أو الاستهواء فى الصحة الجثمانية ؛ فقد أوهم بعض الأطباء شخصاً سليماً بأنه سقيم ، فشعر بالمرض ، وظهرت عليه آثاره . وازداد مرضه بعد أن أخبروه أن صحته فى تأخر وأن مرضه فى تقدم . وما زالوا به حتى أوهموه أنه من الموت قاب قوسين أو أدنى ، فأشفى على الموت . ولكنهم رأفة به أوهموه أن صحته أخذت فى التحسن ، فتحسنت صحته فعلاً . وما زالوا به يوهمونه أن صحته فى تقدم إلى أن عادت إلى ما كانت عليه . فالأفكار الموحى بها من الغير ، أو من النفس لها تأثير عظيم فى سير المرض ؛ فإذا كانت مؤيِّدة له قوَّته ، وإن كانت معارضة له أضعفته ، ثم ذهبت به .

تقول الدكتورة اليزابث سيفرن فى كتابها « العلاج النفسانى » ص ٨٩ فى بيان العلاقة بين الأمراض العقلية والأمراض الجثمانية :

« إن التجارب الخاصة التى قمت بها فى تشخيص الأمراض العقلية قد أقنعتنى بصحة قاعدة عامة هى : أن لجميع الاضطرابات التى تحدث فى الوظائف العقلية - سواء منها ما كان شعورياً وما كان غير شعورى - علاقة وثيقة باضطرابات جثمانية خاصة . »

ثم مضت فوضّحت هذه القاعدة توضيحاً تاماً ، فبيّنت أن كل عضو من أعضاء الجسم يصحب مرضه مرض نفسانى ؛ فقالت مثلا : إن هناك علاقة بين مرض القلب والاضطرابات الوجدانية ، وبين مرض الطحال والكسل والخمول ، وبين اضطرابات المعدة والكآبة وضيق الصدر والتضجر ، وبين مرض الكلية أو عجز الأمعاء عن القيام بوظيفتها والتراخى أو التباطؤ فى السلوك وعقم التفكير وضيق أفقه ، وبين مرض الكبد وسوء الظن وضيق الصدر والخشونة فى معاملة الناس ، وبين وجع الركب والتردد ، وبين وجع الساق أو القدم وعدم القدرة على الابتكار ، وبين الروماتزم والعناء والتراخى فى تحديد الغرض من العمل والسعى نحوه .

ومهما يكن فى هـذه القاعدة من صحة أو خطأ فى التفصيلات ، فإنها تدل بوجه عام على أن هناك رابطة وثيقة بين الأمراض الجثمانية والأمراض النفسانية ، أو بعبارة أخرى على أن ارتباط الجسم بالعقل ارتباط لا مرية فيه .

وهذا هو الأساس الأول من أسس علم العلاج النفسانى الذى لولاه ما كان من الممكن علاج المرض الجثمانى بوسائل نفسية ، ولا علاج الأمراض النفسية بوسائل جثمانية .

الأساس الثانى : أن بعض حالات عقلية غير صحية تصبح عادية ، فتصحبها — على مر الزمن — اضطرابات فى وظائف الجسم ؛ فقـد يقع المرء فريسة للأوهام والخيالات والفزع لأوهى الأسباب ، أو الشك ، أو القلق النفسى ، أو الوسوسة ، أو توهم المرض بدون داع معقول ، أو إدامة التأمل الباطنى أى مراقبة النفس وهى تقوم بعملها — فإذا تمكنت بعض هذه الحالات فى النفس بمرور الزمن ، واشتدت وطأتها ، صارت أمراضاً عقلية حقيقية تنشأ عنها أمراض جثمانية ، أو ضعف جثمانى عام .

الأساس الثالث : أنه إذا أمكن أن يستبدل بهذه الحالات العقلية المريضة

حالات عقلية صحية خفت وطأة الآلام والاضطرابات الجثمانية الآنفة الذكر ، ولا تزال تخف حتى تزول . فكل منا يعرف ما يعترى الإنسان عند الخوف ، أو الحزن ، أو الغضب من اضطرابات فى الأجهزة الباطنية وتغير فى حال الجسم الظاهرية ، ويعرف أيضاً أنه إذا تكررت هذه الانفعالات ، ووقع الإنسان فريسة لها ، فقد تجر وراءها أمراضاً جثمانية. فإذا استطاع المرء أن يخفف من حدة هذه الانفعالات، بضبط النفس أو أى وسيلة أخرى من وسائل ضبط الانفعالات، فإن هذه الاضطرابات تقل، وتخف وطأة الأمراض المترتبة عليها ، ولا تزال تخف حتى تزول .

ا الأساس الرابع : أن الصدمات الانفعالية العنيفة قد تحدث فى الحال خللاً ذريعاً فى وظائف الجهاز العصبى تكون له آثار باقية فى المراكز العصبية العليا ، وقد تكون هذه الآثار أسباباً لأمراض عصبية عقلية سيئة العاقبة .

ا الأساس الخامس : أن العلم بالمخاوف والرغبات أو العقد الوجدانية المكبوتة التى تنشأ عنها أمراض عقلية ، وإخراجها من العقل الباطن إلى العقل الظاهر — من شأنه وحده أن يخفف من حدة تلك الأمراض ، وقد يكون سبباً فى زوالها .

ا الأساس السادس : أن الأمراض التى يثبت بالتحليل النفسى ، أو بأى طريقة أخرى أنها أمراض عقلية ناشئة عن اضطرابات نفسية ينبغى أن تعالج بوسائل نفسية أيضاً ؛ فليس من الحزم فى شىء أن نحاول علاج مرض نشأ عن مخاوف صدمت الطفل فى طفولته ، أو عن وخز الضمير ، أو عن تعنيف الوالدين أو المدرس له تعنيفاً شديداً — أقول ليس من الحزم فى شىء أن نعالج مثل هذه الأمراض بالعقاقير أو الأدوية المادية — نعم إن هذه قد تفيد أحياناً ، ولكن العلاج لا يتم على الوجه الأكمل إلا إذا كان من جنس المرض . فالعلاج النفسانى هو العلاج المباشر الملائم للأمراض النفسانية.

ولله در ابن مسكويه حيث يقول فى هذا الباب[١] :

« إن حذاق الأطباء لا يقدمون على علاج مرض جثمانى إلا بعد أن يعرفوه ، ويعرفوا السبب والعلة فيه ، ثم يرومون مقابلته بأضداده من العلاجات ، ويبتدئون من الحِمْية ، والأدوية اللطيفة إلى أن ينتهوا فى بعضها إلى استعمال الأغذية الكريهة والأدوية البشعة ، وفى بعضها إلى القطع بالحديد والكى بالنار . ولما كانت النفس قوة إلهية غير جثمانية ، وكانت مع ذلك مستعملة لمزاج خاص ، ومربوطة به رباطاً طبيعيًا إلهيًا لا يفارق أحدهما الآخر إلا بمشيئة الخالق عز وجل ، وجب أن نعلم أن أحدهما متعلق بصاحبه متغيّر بتغيّره ، فيصح بصحته ، ويمرض بمرضه . ونحن نرى ذلك مشاهدة وعيانا بما يظهر لنا من أفعالها ؛ وذاك أنا كما نجد المريض من جهة بدنه ، لا سيما إن كان سبب مرضه أحد الجزأين الشريفين أى الدماغ والقلب يتغيّر عقله ويمرض ، حتى ينكر ذهنه ، وفكره ، وتخيله ، وسائر قوى نفسه الشريفة ، ويحس هو من نفسه بذلك ـ كذلك أيضًا نرى المريض من جهة نفسه إما بالغضب ، وإما بالحزن ، وإما بالعشق ، وإما بالشهوات الهائجة ـ تتغيّر صورة بدنه حتى تضطرب ، ويرتعد ، ويصفر ، ويحمر ، ويهزل ، ويسمن ، ويلحقه ضروب التغيير المشاهدة بالحس . فيجب لذلك أن نتفقد مبدأ الأمراض إذا كان من نفوسنا ، فإن كان مبدؤها من ذاتها ، كالفكر فى الأشياء الرديئة ، وإجالة الرأى فيها ، وكاستشعار الخوف ، والخوف من الأمور العارضة والمترقبة والشهوات الهائجة قصدنا علاجها بما يخصها ، وإن كان مبدؤها من المزاج (الجسم) ومن الحواس ، كالخور ، الذى مبدؤه ضعف حرارة القلب مع الكسل والرفاهية ، وكالعشق الذى مبدؤه النظر مع الفراغ والبطالة ـ قصدنا أيضا علاجه بما يخص هذه . »

---

(١) كتاب تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ص ١٤٥ ، ١٤٦

وبعبارة أخرى يجب أن ننظر فى سبب المرض ، فإن كان نفسانيًا عالجناه علاجًا نفسانيًا ، وإذا كان جثمانيًا عالجناه علاجا جثمانيًا . وهذا القدر متفق عليه بين جميع الأطباء فى العصر الحاضر . أما علاج المرض الجثمانى بطريقة نفسانية ، أو علاج المرض النفسانى بطريقة جثمانية فمختلف فيهما ؛ فالماديون يرون علاج جميع الأمراض بالأدوية والعقاقير الطبية، والروحانيون يرون علاج جميع الأمراض بالعقيدة، أو الإيحاء، وما إليها من الطرق النفسانية . ويبالغ بعضهم فى ذلك ، فيقرر أن الجروح والحروق واللسعات، ومايشبهها من الإصابات الجسمية البحتة ـ يمكن أن تعالج بوسائل روحانية. ويستدلون على ذلك بما هو مشاهد من أن بعض الحيوان تجرح ، أو تحرق، أو تكسر عظامها ، ثم تبرأ من إصابتها بعد مدة من الزمن دون أن تعمل لها عمليات جراحية.

أذكر أنى قابلت فى صيف سنة ١٩٢٢ فريقًا من العلماء المسيحيين ، فتحدثت معهم فى هذا الموضوع . وقد أكدوا لى أنه لن ينتصف هذا القرن إلا وقد أصبح العلاج النفسانى الطريقة المتبعة لعلاج جميع الأمراض ـ مهما يكن نوعها وسببها ـ وإنى وإن كنت أرى فى هذا التأكيد شيئا من المبالغة أرى فى الوقت نفسه أنَّ العلاج النفسانى يسير قُدُمًا بخطى فسيحة نحو الكمال .

الفصل العاشر

طرق العلاج النفسانى

أرى لزامًا علىّ قبل التكلّم عن طرق العلاج النفسانى المتبعة الآن أن أذكر أن هنالك شروطًا يجب أن تستكمل لكى يتم ذلك العلاج على الوجه الأكمل . فمن أهم هذه الشروط خمسة يجب أن تتحقق فى المريض وهى :

(١) أن يعلم حقيقة مرضه ، ويعرف الأسباب التى أدت إليه .

(٢) أن تكون لديه رغبة صادقة فى الشفاء ؛ فقد وجد أن من سئموا الحياة ، ورغبوا عنها ـ لسبب ما ـ لا يفلح علاجهم ، مهما يبذل الطبيب لهم من جهد وعناية .

(٣) أن يكون قوى الأمل فى نجاح العلاج، مؤمناً تمام الإيمان بإمكانه على الأقل.

(٤) أن يثق بالطبيب المعالج ثقة تامة غير قابلة للمناقشة .

(٥) أن يعاون الطبيب فى العلاج ، ويطيعه إطاعة تامة ، ويعمل بإرشاده بكل دقة .

ويجب أن يتحقق فى الطبيب أربعة شروط هى :

(١) أن يكون ملماً بعلم الأمراض العقلية بفرعيه ؛ أى علم تشخيص الأمراض العقلية[١]، وعلم العلاج النفسانى[٢] ، وأن يكون ملماً كذلك بعلم الطب، وعلم النفس العام ، ولو بصورة إجمالية .

(٢) أن تكون لديه خبرة عملية كافية اكتسبها من كثرة تجاربه ، وطول

---

(١) Psychopathology (٢) Psychotherapy or Psychotherapeuties

مرانه ، وتتلمذه على بعض الأطباء المهرة فى العلاج النفسانى ؛ وذلك ليكون حاضر البديهة ، سليم الحس ، صادق الحدس ، قوى الشعور ، نافذ البصيرة ، حسن الأسلوب.

(٣) أن يكون واثقاً بنفسه ، وبمعارفه ، وبقدرته على المعالجة ، وبملاءمة طريقته للمرض الذى يعالجه .

(٤) أن تكون لديه شخصية قوية جذابة ؛ تجمع بين قوة الجسم ، وقوة العقل ، وقوة الخلق ـ بحيث تحمل المريض على التأثر بآرائه ، والعمل بإرشاده .

بقى شرط أساسى مشترك، يعد بحق أهم بكثير من الشروط الآنفة الذكر ، ويعتبر نتيجة لتحقق كثير منها ، ذلك هو : وجود علاقة وثيقة ، ورابطة متينة بين الطبيب والمريض فى أثناء العلاج . وتسمى هذه الرابطة اصطلاحاً Rapport، تلك الرابطة التى توحد بين روحيهما ، وتجمع بين نفسيهما ، فتجعلهما روحاً واحدة ، فتتأثر كل منهما بالأخرى تأثراً سريعاً فعالاً ، إذ بدون هذه الرابطة لا يمكن تأثر المريض بالطبيب ، ولا ثقته به ، ولا إدراك الطبيب لحالة المريض إدراكاً واضحاً ، ولا عطفه عليه عطفاً شاملاً .

هذه هى الشروط العشرة التى يجب تحققها ؛ لكى يكون العلاج علمياً دقيقاً مؤديا للغرض .

والآن نتكلم عن وسائل العلاج وطرائقه فنقول :

إن وسائل العلاج إما عامة وإما خاصة ؛ فالعامة هى التى تتبع فى معالجة أى مرض من الأمراض العقلية أيا كان نوعه . وهذه عينها تتبع فى معالجة الأمراض الجثمانية :

فمن تلك الوسائل : التخفيف من حدة مخاوف المريض التى لا داعى لها ، وتهدئة أعصابه بالعطف عليه ، والرفق فى معاملته، وتشجيعه : بالحط من شأن المرض، والتنبؤ

بحسن العاقبة ، وتغيير البيئة التى يعيش فيها المريض تغييراً تاما ، من شأنه أن يبعث السرور فى نفسه ، ويقضى على مخاوفه ، ويذهب بمشاغله، وأفكار المشجعة للمرض .

وبدهى أنه مما يساعد على شفاء المريض : وجوده مع رفاق مؤنسين لا يدخرون وسعا فى إدخال السرور عليه ، وكذلك تغيير الأعمال التى يقوم بها أو تركها ، مع التعرض للشمس والهواء الطلق ، والاستمتاع بالمناظر الطبيعة الجميلة ، والاستماع إلى الموسيقا الهادئة التى تشنف الأسماع وتهدىء الأعصاب .

أما المسائل أو الطرق الخاصة فهى التى تتبع فى معالجة الأمراض العقلية بوجه خاص . وهذه كثيرة نكتفى بذكر أهمها ، وهى : (١) العلاج الجثمانى، (٢) والتنويم المغناطيسى أوالصناعى ، (٣) والتحليل النفسانى ، (٤) والإيحاء ، (٥) والتحريض، (٦) والتربية من جديد ، (٧) والتنفيس .

(١) أما العلاج الجثمانى و (٢) التنويم الصناعى فقد سبق الكلام عليهما . وقلما يُتخذ التنويم وحده وسيلة للعلاج النفسانى فى الوقت الحاضر .

وهاك بياناً لكل من الطرق الأخرى .

(٣) التحليل[١] النفسانى :

إن الغرض الأساسى من التحليل النفسانى هو نقل الوجدانات أو الرغبات أو العقد النفسية ، أو المخاوف المكبوتة من العقل الباطن إلى العقل الظاهر ؛ فإن نقل هذه المخاوف والذكريات التى لها علاقة بالمرض إلى العقل الظاهر ، وعلمَ المريض بها قد يكون وحده كافياً لتخفيف حدة المرض أو زواله كما قلنا من قبل ، وكما قال ابن سينا منذ أكثر من تسعمائة سنة .

---

(١) Psychoanalysis

والمتبع فى ذلك عادة أن يستلقى المريض على فراش وتير مريح ، بحيث تنبسط عضلاته ، ويعطى نفسه أكبر قسط ممكن من الراحة والهدوء ، ثم يغمض عينيه، ويلتفت إلى جهة غير التى بها الطبيب . ثم يأخذ فى سرد تاريخ حياته سرداً حراً طليقاً بكل صراحة وأمانة ؛ فلا يخفى شيئاً ولا يخجل من ذكر شىء ، ولا يطاوع نفسه إذا سولت له كتمان أى صغيرة أو كبيرة من تجاربه الماضية . وما على الطبيب إلا أن يصغى بكل يقظة وتأمل إلى ما يقوله المريض ، ويدون مايرى من الهامّ تدوينه . فإذا تلعثم المريض أو اضطربت أو تردد فى الحديث اتخذ الطبيب ذلك دليلا على أن هناك حادثة أو نقطة لا يريد المريض أن يبوح بها ، وهى فى الوقت نفسه قد تكون مفتاح الداء وسر الدواء ، فحينئذ يوجه الطبيب إلى المريض من الأسئلة مايحمله على استقصاء الحادثة ، وتوضيح النقط التى يميل إلى إخفائها ، أو الإجمال فى ذكرها ، أو الإبهام فى شرحها . وبعد أن ينتهى المريض من حديثه الذى قد يستغرق عدة جلسات يعود الطبيب فيحلل هـذا الحديث . وبمهارته وحسن فراسته ، يعلم الميول والرغبات التى أدى الضغط عليها إلى المرض ، فيلفت نظر المريض إلى ذلك ، ويشرح له سبب المرض تمام الشرح . وبذلك يتم أمران هامان لهما أكبر الأثر فى الشفاء ، وهما (١) انتقال الأفكار والرغبات المكبوتة إلى حيز العقل الظاهر ، و(٢) علم المريض بأسباب مرضه علماً تاماً . وقد يستعين الطبيب للحصول على هذين الأمرين بوسائل أخرى؛ كتوجيه أسئلة خاصة إلى المريض ومطالبته بالإجابة عنها ، وتحليل أحلامه فى النوم أو اليقظة، ودراسة أغلاط قلمه أو لسانه ، وتتبع سلوكه الشاذ كما قلنا من قبل .

(٤) الإيحاء[١] :

يعلم مما تقدم أن هذه الطريقة تعتبر نتيجة لتطور العلاج النفسانى من مسمر إلى

(١) Suggestion and Autosuggestion

بريد ، ثم إلى ليوبولت ، ومدرسة نانسى ومسيو كوى . والغرض من الإيحاء: حمل المريض بالكلام أوغيره على أن يعتقد أن مرضه خفيف الوطأة ، سهل العلاج . حتى إذا ما تحسنت حالته ، قيل له إن مرضه آخذ فى الزوال ، وفى النهاية يوحى إليه أن مرضه ذهب . ولا يخفى عليك ما للإيحاء من تأثير طبيعى فى النفس، وبخاصة إذا كان الموحِى قوى الشخصية ، نافذ الإرادة ، مسموع الكلمة، وكانت صلته بالمريض وثيقة .

ومن الإيحاء ما هو خارجى ، وما هو ذاتى ؛ فالخارجى ما أتى من الغير أو من البيئة التى تحيط بالإنسان ، والذاتى ما كان من النفس مباشرة . ومن الخارجى ماهو عادى ، وهومايتم فى أحوال عادية ، وما هو غير عادى ويسمى بالإيحاء التنويمى ، وهو ما يحدث فى أثناء النوم الصناعى. ولست بحاجة إلى أن أطيل فى شرح الإيحاء وبيان آثاره ، فمن المعروف أنه قد أصبح من أقوى الأسلحة المعنوية التى بها تحارب الأمم بعضها بعضاً ، فيتخذونه وسيلة لتقوية الروح المعنوية لدى جنودهم وأنصارهم، وتثبيط همم الأعداء ومن ينتمى إليهم .

والظاهرة الغريبة التى لها تأثير فى العلاج بالإيحاء الخارجى هى ظاهرة النقل[1] . ومعنى ذلك أن المريض عند تأثره بالإيحاء ، واتصاله بالموحِى تمام الاتصال يأخذ عنه أفكاره؛ فإذا فكر الموحى فى أن المريض آخذ فى التحسن ، وأن مرضه لا محالة زائل، أو أنه قد زال بالفعل، فإن هذه الأفكار تنتقل من الطبيب إلى المريض بالإيحاء ، فيترتب عليها شفاؤه . وهذا الشفاء يرجع كما قال ابن سينا إلى « طاعة الطبيعة للأوهام النفسانية. »

وقد دلت الإحصاءات التى أمكن الحصول عليها حتى الآن على نجاح العلاج النفسانى بالإيحاء إلى مدى بعيد جداً ، ولا سيما فيما يخص الأمراض التى لها علاقة بالاضطرابات العصبية ؛ كالأرق، والصداع المزمن ، والصرع ، والهوس ، والوسوسة،

---

(١) Transference.

وبعض أنواع الجنون؛ كالميلانخوليا التى نبغ فى علاجها الرئيس ابن سينا ، وكذلك بعض العادات الشاذة ؛ كالفأفأة ؛ والنوبات العصبية المتقطعة ، وبعض الأمراض الجثمانية ؛ كالشلل، والرَّثية .

وقد أمكن بالالتجاء إلى الإيحاء أن تحيا بعض الأسر فى بيئاتهم المنزلية حياة عقلية هادئة مطمئنة ، يسودها السلام ، ويعمها الانسجام ، بعد أن كانوا يعانون صعوبات جمة فى حياتهم، من جراء ما كان يحدث بينهم من خلاف ، وما يعتريهم من اضطرابات عصبية تكدر عليهم صفو حياتهم .

ويعزى إلى الإيحاء وتأثيره فى النفس نجاح بعض طرق علاجية أخرى غير ماذكرت وما سأذكر، وذلك كالعلاج بالتعاويذ والرقى، والأدعية والتوسلات الدينية وزيارة قبور الصالحين، والتبرك بالأولياء أو بمخلفاتهم وآثارهم، وكذلك الزّار، وسحر السحرة ، وشعوذة المشعوذين من الذين يفسدون فى الأرض ، وقليلا ما يصلحون . وعلى أساسه أيضاً ينجح ما يسمى بعلاج العلماء المسيحيين ، وليس أدل على ذلك من الحادثة الآتية .

ذكر الدكتور بِتْس تابلين فى كتابه « التنويم الصناعى والعلاج النفسانى[1] » ص ٩٨ . أن فتاة متحمسة من أنصار العلماء المسيحيين اعتراها مرض شديد ليلة من الليالى ، فكتبت خطاباً إلى سيدة من هؤلاء الناس تطلب إليها معالجتها غيابياً بطريقتهم الخاصة ، التى تقوم على الأدعية والاعتقاد ، وعينت لها الوقت الذى يعتريها فيه المرض ، والتى تنتظر من السيدة أن تقوم فيه بمعالجتها . وقد أرسلت الخطاب بالبريد قبل الوقت المعين بمدة كافية لوصول الخطاب إلى السيدة . وجاءت الليلة المعينة ،

---

(١) Hypnotie suggestion and psycho-Therapeutics by A. Betts Taplin.

وفى الوقت المحدد أعدت الفتاة نفسها لتلقى إرشادات الشفاء ، وقد حدث أن اشتد عليها المرض ، ولكن لم تلبث أن شعرت بشىء من الراحة ، وفى الحال خفت حدة المرض ، وذهبت آثاره .

وقد ذكرت الفتاة هذه الحادثة بعد وقوعها مباشرة للدكتور تاپلين ؛ لتبرهن له على صحة المعالجة الغيابية ، ولكنها شعرت بشىء من الخجل بعد ذلك بأيام قليلة، حينما عاد إليها خطابها عينه الذى أرسلته إلى السيدة ، وقد وجدته مغلقاً وكتب عليه عمال البريد من الخارج «غير معروفة . » ومعنى ذلك أن الخطاب لم يصل إلى السيدة ، فلم تقم بالمعالجة ، وأن الشفاء يرجع إلى صحة العقيدة ، وصدق الأمل فى الشفاء .

ومن أشهر من عنوا بالإيحاء فى عصرنا هذا الدكتور إميل كوى . وطريقته فى ذلك أن يوحى إلى المريض أن يعتقد أن مرضه آخذ فى الزوال ، وأنه متقدم بدون شك فى صحته . ولتثبت هذه العقيدة فى نفس المريض كان يطلب إليه بحنان ورفق أن ينطق بعبارات يعينها له، فيقولها مرات، ملتزما الهدوء فى أول الأمر، مع رفع صوته قليلا ، ثم يعود فيسرع فى الكلام ، ويهبط بصوته قليلا ـ كل هذا مع الإيحاء إليه أن يعتقد صحة ما يقول اعتقاداً جازما .

ولم يكتف كوى بمعالجة المرضى بهذه الطريقة ، بل أخذ يحرض الأصحاء على أن يتخذوا من الإيحاء الذاتى Autosuggestiou وسيلة للنهوض بأنفسهم ، وتوجيه سلوكهم توجيها صالحا ، والتخلص من عيوبهم الخلقية والاجتماعية .

أذكر أن مسيو كوى هذا استدعى إلى مدينة إكستر بانجلترا ، حيث كنا نتعلم، فعقد عدة جلسات حضرت أنا وفريق من إخوانى المصريين واحدة منها . وقد شاهدناه وهو يطبق مبادئه تطبيقا عمليا . وبعد أن أقام بالمدينة عدة أيام ، كنا نسمع سكانها صغاراً كانوا أو كباراً يرددون عبارة علمهم إياها ، وطلب إليهم أن

يرددوها كل صباح وهى :

Day by day in every way I am getting beterr and better.

وعبارته بالفرنسية هى :

Tous les jours a tous les points de vue je vais mieux en mieux.

ومعنى ذلك : إنى متقدم كل يوم من كل وجه .

(٥) التحريض[١] :

قد جعل دى بوا وديجيرين Dejerine التحريض طريقة فنية يعتد بها . والغرض منه حمل المريض على أن يقوم بأعمال لايمكنه القيام بها إلا عند زوال المرض ؛ كأن يحاول المصاب بالشلل أن يمشى ، أو من عنده رثية فى أحد أعضائه أن يحرك هذا العضو حركة عادية ، وكأن يتشجع الجبان فيعمل أعمال الشجعان ، أو الخائف فيعمل أعمال من لايشعرون بخوف . وهناك من التجارب الكثيرة ما يكفى للدلالة على نجاح هذه الطريقة .

فمن ذلك ما حكته الدكتورة سيڤرن فى كتابها « العلاج النفسانى » ص ١٥٤ حيث قالت : « استدعيت لعلاج رجل قارب الكهولة ، كان قد لزم الفراش عدة أسابيع لتورم فى أطرافه . وقد ألزمه الطبيب الجثمانى أن يبقى فى الفراش حتى يستريح ؛ لأن أطرافه من الضعف بحيث لايسمح له بالتحرك . وقد تمكنت هذه الفكرة من نفس المريض ، لدرجة أنى وجدت من الصعب تحريضه على أن يقوم بحركة ما . وكل ما أمكننى أنى حملته على أن يعد وعداً صريحاً بمحاولة النهوض والحركة . ولكنه لم يف بوعده ، فاضطررت أن أسلك معه مسلكا آخر ، فقلت له إنى مشغولة جداً ، ولا أستطيع الحضور لرؤيته إلا نادراً جداً ، ولكن إذا استطاع أن ينهض ويخاطبنى

(١) ويسمى بالعربية التضريب أيضا Persuation

بالتلفون فمن الممكن أن أستمر فى معالجته معالجة الغائب . ولكنه حاول التخلص من هذا العمل بتقديم أعذار كثيرة ، فقال : « إن التلفون بالطابق الأسفل ، وإنى أشك فى إمكان الوصول إليه ، وليس من المستحسن مخالفة الطبيب الجثمانى » . فرأيت أن أحرضه على النهوض والتمشى فى الحجرة قليلا مع الاستراحة بين فترات المشى ، فنجحت فى ذلك ، ولو أنه كان من الصعب عليه أن يمشى ، لبقائه بالفراش مدة طويلة ساكناً لا يبدى حراكا . وقد أخبرته أنه فى الساعة الثالثة من بعد ظهر اليوم الثالث من الآن ستتحسن صحته ، ويكون قادراً على النزول إلى موضع التلفون للتكلم معى ، وأكدت عليه أنى سأكون فى انتظار طلبه لى . وفى الساعة المعينة ظهرت بشائر النجاح ، فقد نزل المريض وخاطبنى فى التلفون، وأخبرنى ـ وهو مستبشر مسرور ـ أن صحته فى تحسن مستمر ؛ فقد ذهبت أعراض المرض بسرعة ، ولم يعد يتألم ، ولم يبق أثر للتورم . وقد تم شفاؤه نهائياً فى أقل من أسبوعين .»

(٦) تجديد التربية[١] :

قد هذب هذه الطريقة جانت الفرنسى ، ومورتن برنس الأمريكى ، وغيرهما . والغرض منها أن يخرج المريض من دائرة شعوره جميع الأفكار والمبادئ الخاطئة المعززة لمرضه، المقوية له، ويملأ ذهنه بأفكار أو مبادئ صحية صحيحة معارضة للمرض ، أو أن يغير وجهة نظره نحو المرض ، فيعرف أنه يرجع إلى أوهام ومخاوف لا داعى لها ، أو إلى تجارب مضت وانقضت فلا معنى لاستمرار التأثر بها ، أو إلى ذكريات ليس من الحزم الغلو فى تقديرها والتعظيم من شأنها . ويمكن أن نقول على وجه العموم إن معنى تجديد التربية تغيير وجهة نظر المريض نحو مرضه تغييراً كلياً ، مبنياً على أساس فكرى منطقى، وتهيئة نفسه لحياة جديدة ملئت بالأفكار الصحيحة

(١) Re-Education

والأعمال النافعة ، والمبادىء القويمة ، والعادات الصحيحة ، والآراء السديدة ، التى تصغر أمامها قيمة المرض ، بحيث يصير وهماً أو خيالا أو هباء فى الهواء، لا يحتمل البقاء . وهذا عينه ما يعنيه ابن سينا حين قال فى علاج المريض بالعشق : « وإن كان العاشق من العقلاء فإن النصيحة والعظة له ، والاستهزاء به ، وتعنيفه، والتصوير لديه أن ما به إنما هو وسوسة وضرب من الجنون مما لا ينفع نفعاً ، فإن العلاج ناجح فى مثل هذا الباب . »

وهاك مثلا للعلاج بتجديد التربية ، وهو مثل الطفل الذى يخاف الظلمة ويعتريه ذعر شديد حينما يذهب إلى مكان مظلم ، فنستطيع بهوادة ورفق أن نفهمه أن النور والظلمة متساويان ، فكل منهما ظاهرة طبيعية ، فالنور يأتى من الشمس أو القمر أو المصباح مثلا ، فإذا ذهبت هذه كلها كانت الظلمة . ومن الممكن أن يصحبه والده إلى أمكنة مظلمة مرة بعد أخرى ، ولا يزال به يزوده بالأفكار الصالحة، ويحرضه على الأعمال التى من شأنها أن تزيل الخوف من نفسه، وتبث فيها الشجاعة، والثقة بالنفس.

وهاك مثلا آخر: حالة الشخص الذى يأتى إلى الطبيب النفسانى فى حالة ذعر وهلع، وشدة حيرة وفزع ، يقول إنه يخشى أن يفقد ذاكرته ، ويستدل على ذلك بأنه لا يستطيع أن يتذكر حادثة من الحوادث ، وبأنه ينسى ما يقرأ فى الكتب ، وبما أن التذكر من وظائف العقل الأساسية ـ فهو يخشى أن يعترى عقله شىء من الخلل، بل يخشى أن يُجَنَّ . هكذا يفكر لنفسه ، ولو علم أنه لا يحصر انتباهه فيما يرى أو يسمع أو يقرأ ، وأنه إذا حصر انتباهه فى تجاربه لسهل عليه تذكرها بدقة . فضعف ذاكرته يرجع إلى ضعف انتباهه وقلة عنايته ، وضعف الانتباه أمر من السهل معالجته، ولا يعد مرضاً من الأمراض الخطرة . فإذا نجح الطبيب فى توجيه مثل هذا المريض توجيها صحيحا ، وإقناعه بفساد آرائه ، وبأن المقدمات التى يذكرها لا تؤدى إلى

النتيجة التى يتخيلها ـ أقول إذا نجح الطبيب فى ذلك فسرعان مايبرأ المريض ، ويعود إلى رشـده وصحته . وبهذه الطريقة أمكن أن يعالج علاجاً سريعاً نهائياً كثير من الأمراض الثانوية ؛ كالأرق. والوسوسـة ، وضعف الإرادة ، والفرَق الشديد من الحيوانات الغريبة ، والتلعثم فى الخطابة أو التمثيل وما إليهما .

(٧) التنفيس[١] :

يراد بالتنفيس: إطلاق سراح الانفعالات أو الرغبات المكبوتة بأى وسيلة من الوسائل ؛ كإخراجها من العقل الباطن إلى العقل الظاهر، والتفكير فيها مرة أخرى، وإرضائها بالفعل، والعمل بمقتضاها ؛ كأن يحصل الطفل على ما كان قد حُرِمَهُ من لعب أومنزلة لدى أبيه أوأمه أو أستاذه ، أو يحصل شخص على ما كان يرغب فيه من مال، أومنصب، أو شىء من الأشياء .

وقد ذكرنا فيما سبق أن ابن سينا قد نجح فى علاج العاشق بهذه الطريقة ، وقال فى القانون : « إن معرفة المعشوق إحدى سبل الشفاء »

وهنا يورد بعض العلماء اعتراضا فيقول : «إننا لا ندرى فى حاله التنفيس ما إذا كان النجاح فى العلاج يرجع فى الواقع إلى التنفيس نفسه، أو إلى استعادة الذكريات الماضية ، ونقل الرغبات المكبوتة من العقل الباطن إلى العقل الظاهر ؛ فإن الأمرين كثيراً ما يحدثان معا عند التنفيس، وكلاهما له أثر فى الشفاء ، وخصوصا الأمر الثانى.»

وهنا نقول فى الرد على هذا الاعتراض : «إنه ليس هناك مايمنع من أن يرجع الشفاء إلى الأمرين معا إذا وجدا معا ، وإن التنفيس حينئذ يعد وسيلة للإسراع فى العلاج . على أن التنفيس قد ينفرد بالعلاج إذا كان السبب شعوريا يعلم به المريض ولكنه يخفيه. »

والتجارب تؤيد نجاح التنفيس نجاحا باهرا فى علاج مثل هذه الحالة ـ إذا استخدم بمهارة؛ كما فى معالجة ابن سينا للعاشق التى شرحناها فيما مضى .

---

(١) Abreaction

خاتمـــــة

العلاج النفسانى والتربية

يكفى ماذكرته ملتزماً طريق الإيجاز عن نشأة العلاج النفسانى ، وتطوره ، وأسسه، وشروطه، وطرائقه . والآن أنتقل إلى التحدث فى موضوع آخر له من الأهمية ماله ، وهو يعنينا نحن المربين بوجه خاص، ذلك هو تطبيق المبادئ التى ذكرتها على التربية، سواء أكانت فى البيت ، أو فى المدرسة ، أو فى المجتمع العام .

ذكرنا فيما مضى أن هناك شروطاً لابد من تحققها للنجاح فى العلاج النفسانى ، وهنا أقول إن هذه الشروط نفسها ضرورية للنجاح فى التربية . وإنى واثق من أن تحققها أو العمل بمقتضاها كفيل بأن يخرج لنا جيلاً ناهضاً ، سليم الجسم والعقل ، قوى الإرادة ، قويم الخلق . ومن البديهى أنه إذا نجحت المبادئ التى ذكرناها فى معالجة المرضى ، وإعادة صحتهم العقلية إلى مجراها الطبيعى ، فإنها من باب أولى خليقة بأن تنجح فى تقوية أصحاء العقول، وإرشادهم إلى خير الطرق، وأقوم السبل إلى التخلص من عيوبهم النفسيـة الثانوية ، واستغلال نشاطهم الفطرى ، والانتفاع بمواهبهم الطبيعية إلى أقصى حد ، واكتساب العادات والأخلاق النافعة، والعواطف الراقية ، التى تجعلهم أعضاء عاملين، نافعين لأنفسهم وأمتهم .

وإن خير مانتذرع به للوصول إلى مانقصد إليه هو: الإيحاء، الذى إذا استخدمناه بمهارة أفادنا فى تنبيه الناشئين إلى عيوبهم ، وإرشادهم إلى طرق التخلص منها .

وهذان لايتمان على الوجه المرضى إلا إذا اتخذنا التشجيع رائدنا فى كل مانقول

ونفعل عنـد ما نقوم بواجب التربية ، وتحاشينا تثبيط همم أولادنا ، وتجنبنا وصفهم بالغباوة والبلادة والـكسل ، وتشبيههم بالبغال والحمير ، وما إلى ذلك من الألفاظ النابية التى توحى إليهم بالتكاسل ، وضعف الأمل فى التقدم ، وقلة الثقـة بالنفس ، وتسد منافذ تفكيرهم ، وتغلق أبواب الرجاء فى وجوههم. والواجب ـ بدلاً من ذلك ـ أن نحفز هممهم، ونخفف من نواحى ضعفهم، ونوحى إليهم ـ بلباقة وكياسة ـ أن مابهم من ضعف أمره هيّن، يسهل التخلص منه بالتنبّه إليه ، والـكر عليه ، ومحاولة القضاء عليه بالمثابرة ، وصدق العزيمة .

ومن هنا نرى من الخطأ ، بل من الحمق أن نغلو فى تقـدير نواحى ضعفهم ، أو أمراضهم عقلية كانت أو جثمانية ، وأن نُفْرط فى رفع شأنها وتعظيم أمرها، ونحيطهم بأجواء وظروف من شأنها أن تزيد فى أمراضهم ، وتضعف آمالهم فى الشفاء ؛ كأن يلبس النساء الملابس السوداء ، ويجلسن حول المريض ، وعليهن علامات الـكآبة الحزينة ، وأمارات الحزن الـكئيب ، وينطقن بعبارات خافتة كلها تثير الخاطر ، وتزيد فى الألم ، وتدعو إلى اليأس ، وتضعف الأمل . ولو أنهن لبسن من الثياب مايسر الناظر ، وظهرن بمظاهر تحمل إلى النفس البشر والغبطة ، وتـكلمن بعبارات تبعث الأمل والرجاء ، وأحطن المريض بجو يوحى إليـه بالصحة والعافية، والثقـة والاطمئنان ـ أقول لو أنهن فعلن ذلك مع المريض لـكان أدعى إلى هدوئه وراحته ـ إن لم يكن إلى سرعة شفائه من علته .

ولنذكر دائماً ما لدراسة النفس والعلم بنواحى ضعفها من أثر فى التربية، فلنحاول ما استطعنا أن نرشد من نربى من الأطفال إلى عيوبهم كى يعرفوها حق المعرفة، وأن نعاونهم على تعرف أسبابها ؛ فإن هـذه المعرفة ضرورية فى التربية ، كما هى ضرورية فى العلاج النفسانى .

ولا ننسى أيضاً أن اعتماد المتعلمين على أنفسهم من أهم المبادئ التى ترمى إلى تحقيقها التربية الحديثة ؛ فإن جميع طرق التربية الحديثة ترمى ـ فيما ترمى إليه ـ إلى أن يعتمد التلاميذ على أنفسهم فى تربيـة أنفسهم ، لأن ذلك أجدى عليهم ، وأدعى إلى ثبات معلوماتهم فى أذهانهم ، والانتفاع بها فى حياتهم .

فما أحوجنا نحن المربين إلى دراسة علم العلاج النفسانى ، والإلمام بمبادئه وطرائقه إلماماً خاصاً ملائماً لمهنتنا ؛ فإن هـذه الدراسة ـ بالإضافة إلى أنها تساعدنا فى معالجة أمراضنا وعيوبنا ، وإصلاح أنفسنا ، وتحسين أحوالنا الجسمية والعقلية والخلقية ـ تفيدنا أيضًا فى معاونة مرضى العقول والأخـلاق من تلاميذنا على التخلص من أمراضهم ، وفى تشجيع الأطفال العاديين ، وإرشادهم إلى أقوم الطرق وأسهلها لتربية استعداداتهم ، والانتفاع بمواهبهم ، واكتساب الصالح من العادات والعواطف النافعة لهم فى حياتهم .

والحق أننا لو طبقنا قوانين العلاج النفسانى ومبادئه فى التعليم ، والحياة المدرسية لكان الجو المدرسى جوًّا صحيًّا صالحاً ، يفيض غبطة وسروراً ، ولتنسم التلاميذ نسيم الأمل والتفاؤل ، وأقبلوا على الدراسة بنفوس راضية ، وقلوب مطمئنـة ، ولكانت علاقتهم بالمدرسين علاقة إخلاص ووفاء ، ومودة وصفاء : علاقة حنان وعطف ومعونة من جانب المدرس ، واحترام وطاعة من جانب التلميذ ، ولاعترف المدرس بشخصية التلميذ ، والتلميذ بشخصية المدرس ، ووثق كل منهما بنفسه وبالآخر ، ووجدت بين الشخصيتين رابطة تعاون وتآلف ، لا أثر فيهما للتنافر والتخالف ، ولسار الجميع نحو الغاية المنشودة آمنين مطمئنين ، فرحين مستبشرين .

وليس الزعيم السياسى ، والمصلح الاجتماعى بأقل حاجة إلى تطبيق مبادئ العلاج النفسانى من الطبيب والمدرس ؛ فإن علاج عيوب المجتمع ، واتجاهاته الخاطئة ،

وأمراضه الاجتماعية - يجب أن تخضع للمبادئ نفسها التى يخضع لها علاج عيوب الفرد وأمراضه الخاصة . ومعنى ذلك أن على المصلح الاجتماعى أن يدرس أمراض المجتمع وعيوبه دراسة وافية ؛ كى يعرف أسبابها الحقيقية ، والظروف الخاصة التى نشأت عنها ، فإن معالجة هذه الأمراض لا تفلح إلا إذا سبقها تشخيص صحيح لها ، ومعرفة تامة بأسبابها ، والظروف التى أوجدتها . وقد يكون من الضرورى للوصول إلى ذلك الغرض تتبع تاريخ الأمة ، ودراسة الحوادث الماضية ، التى عسى أن تكون مسئولة عن نشأة هذه الأمراض كلها أو بعضها .

وبعد تشخيص الأمراض ، والعلم التام بأسبابها ، وبالظروف والملابسات التى ساعدت على نشوئها يستطيع المصلح الاجتماعى أن يشرع فى إصلاح المجتمع ، ومعالجة أمراضه . وليس العلاج المسكن الظاهر المؤقت بنافع ؛ لأنه لا يؤدى إلى نتائج حاسمة دائمة . وإنما العلاج النافع المؤدى إلى الأغراض المنشودة هو العلاج الحاسم ، الذى يقطع دابر العيوب ، ويجتث جذور الأمراض ، ويقضى عليها القضاء المبرم .

وكما قلنا إن العلاج النفسانى لا يتم إلا إذا علم المريض حقيقة المرض ، وعرف أسبابه والظروف التى دعت إليه ، نقول هنا : إن علاج المجتمع لا يتم - ولا يمكن أن يتم - إلا إذا بذل المصلح غاية جهده فى مصارحة أفراد المجتمع ، وجعلهم يشعرون شعوراً تامًا بأمراضهم الاجتماعية ، وذلك بتصويرها لهم تصويراً صحيحًا دقيقًا ، وشرحها لهم شرحًا مستفيضًا ، يشمل حقائقها وأسبابها ، وما يترتب عليها من أضرار قد تحيق بالشعب ، ونتائج سيئة قد تفتك بالأمة ، وتقضى على كيانها ، وتذهب بشخصيتها ، وتجعلها لقمة سائغة فى أفواه الأعداء .

يقول بعض الفلاسفة : « إن الشعور بالنقص أول خطوة نحو الكمال . » فمن الواجب أن نكون صرحاء أمام أنفسنا ، وأن يواجه بعضنا بعضاً بالحقيقة - وإن كانت مُرَّة ،

وبالواقع وإن كان مؤلماً . يجب أن يقول كل منا للمخطئ : أنت مخطئ ، وإن كان صديقه أو أباه ؛ فالحق فوق الصداقة ، بل فوق الأبوة ؛ فقد قال إبراهيم لأبيه آزر : « أتتخذ أصناماً آلهة ، إنى أراك وقومك فى ضلال مبين . » ولا نكتفى بذلك ؛ بل يجب أن نرشد الضالين إلى الصواب ؛ فالمؤمن مرآة أخيه وناصحه ، وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « الدين النصيحة » .

ومعاونة أفراد المجتمع بعضهم لبعض على إصلاح عيوبهم وعلاج أمراضهم ضرورية ، كمعاونة أعضاء الجسم الواحد بعضها لبعض على شفائه وصلاحه . وتعاون أفراد المجتمع ، والمصلحين ، والزعماء على إصلاح المجتمع ، وحسن إرشاده — ضرورى جداً ؛ إذ هو بمنزلة تعاون المريض والطبيب على علاج المرض ، وتعاون التلاميذ وأولياء أمورهم على التربية .

ولا تكفى معاونة أفراد المجتمع وجماعاته للزعماء المصلحين على تحسين أحوالهم ، بل يجب أن يعتمد المجتمع على نفسه فى ذلك إلى حد كبير جداً ، ولا يستسلم للزعماء استسلاماً تاماً ، وأن يكون موقفه منهم موقف اليقظة ، والحيطة ؛ فلا يكتفى بالأدوية التى يصفونها ، وأنواع العلاج التى يقترحونها ، بل يبحث عن أدوية أخرى ، ويعين له من نفسه رقباء عليه ، مرشدين له ، أطباء لنفوس أفراده المريضة ، مصلحين لأخلاقهم المعوجة . وفى الحق إنه لا يرجى صلاح لأمة لا يدعو بعضهم بعضاً إلى الخير ، ولا يأمرونهم بالمعروف ، ولا ينهونهم عن المنكر ؛ فقد مدح الله تعالى الأمة الإسلامية ، فقال : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر » . وقال عن الكافرين من بنى إسرائيل : « لُعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ؛ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » .

إن بمجتمعنا المصرى عدة عيوب ؛ فقد انتابته العلل الجثمانية ، وأصيب بسوء التفكير ، وسرت فيه الأمراض الاجتماعية والخلقية سريان السم فى الدسم . ولست بحاجة إلى سرد هذه الأمراض؛ فكلنا يعرفها ، ويأسف كل الأسف لشيوعها بيننا . ولا سبيل إلى التخلص منها إلا أن تستعد لمهاجمتها والكر عليها جميع القوى المادية والمعنوية التى يمكن إعدادها، من قوى الأفراد إلى قوى الجماعات ، ومن قوى الصغار إلى قوى الكبار ، ومن قوى المحكومين إلى قوى الحاكمين . ويجب أن تتضافر هذه القوى جميعها ، وتتعاون ، وتسير وتجد فى السير ، لا تكل ولا تمل ، حتى تصل إلى الغاية .

وليس يخاف على القارئ الكريم أن للإيحاء هنا من الأثر ماله فى علاج أمراض الفرد ، وتربية الناشئين ؛ فالجماهير مطبوعة على أن يتأثر بعضهم ببعض بهذه الوسيلة النفسية تأثيراً كبيراً ، فسرعان ماتروج بينهم الإشاعات ، وتسير فيهم الأفكار والآراء ؛ يأخذونها عن المجلات والصحف ، أو عن أفواه من يثقون به ثقة عمياء ، فيتخذونها أفكاراً لهم ومبادئ ، كأنها أفكارهم ومبادئهم. وكثيراً ماتنتقل الأوهام والخرافات والمخاوف من جماعة إلى أخرى بهذه الوسيلة نفسها — انتقال جراثيم الأمراض المعدية من المرضى إلى الأصحاء ؛ فليتنبه المصلحون إلى ذلك ، وليعملوا على الانتفاع بهذه الظاهرة النفسية فى ترويج الآراء الصحيحة ، والمبادئ السليمة التى تبث فى نفوس الناس الشرف ، والنزاهة ، والمروءة ، والعزة القومية ، والكرامة الوطنية ، والتفاؤل ، والثقة بالنفس، والاعتماد عليها ، وقوة العزيمة ، وغير ذلك من العادات القويمة. وليتخذوا الإيحاء سلاحاً ماضياً يقضون به على المبادئ الفاسدة ، والعقائد الباطلة التى انتشرت الآن بين جمهرة الشعب ، فأدت إلى أخلاق فاسدة ، وسلوك معوج .

وكما نحن فى حاجة إلى اتخاذ تدابير علاجية حاسمة لقطع دابر الأمراض والعلل

بجميع أنواعها أرانا فى حاجة أيضاً إلى وسائل وقائية فعالة لتنشئة جيل جديد قوى، سليم الجسم متين الخلق . ولا سبيل إلى ذلك إلا تربية جديدة تقوم على أسس تربيبية سليمة ، وقداعد علمية صحيحة .

وهذه التربية الجديدة يجب أن تبدأ من طرفين: من الطرف الأعلى ، وأعنى بذلك أن نربى الكبار من أولياء الأمور من جديد . ومن الطرف الأسفل ، وأريد بهذا تربية الناشئين تربية جديدة . وأعباء التربيـة فى كلتا الحالين ملقاة على كواهل الكبار ؛ فهم المسئولون مباشرة عن تربية أنفسهم أولا، وعن تربية أبنائهم ثانياً ـ تربية شاملة للجسم والعقل الخلق .

إن هذا الجيل الناشئ سيكون منه رجال المستقبل ، فلنفكر فى هذا المستقبل ، وفيما عسى أن يأتى به من انقلابات ، ولنعد له هـذا الجيل إعداداً كاملاً . إن كلاً منا مسئول أمام الله ، وأمام ضميره ، وأمام وطنه عن نفسه وأهله ووطنه ؛ فلينظر أين موقفه من كل هؤلاء .

***

قد ظهر لنا الآن ما للعلاج النفسانى ، أو علم النفس الطبى ، والإلمام بأصوله وطرائقه من فوائد جمة تعود على الطبيب ، والمربى ، والمصلح الاجتماعى . وإنى لأعجب ـ وفى الوقت نفسه آسف ـ لأن هذه المادة ليست من المواد التى يُعنى بها العناية اللائقة بها فى كليتى الطب بجامعتى فؤاد وفاروق ؛ فعسى أن يتنبه أولو الأمر إلى أن الوقت قد حان لأن تجعل هذه المادة من بين المواد الأساسية التى تدرس بهاتين الكليتين .

وأعود فأقول ـ وأكرر القول ـ إن هذه المادة هامة جداً للمدرسين ؛ فكثير من الأطفال يصبحون فريسة للأحلام والأوهام ، وتعتريهم نوبات عصبية أو اضطرابات نفسية ، وحالات انفعالية خاصة قد تجنح بهم إلى سلوك شاذ . فإن لم يتنبه المدرس

إليهـا فقد يخطئ فى تقديرها ، بل قد يعاقب المصاب عليها أو يسخر منه ، فى حين أنه لو كان ملما بعلم العلاج النفسانى لأشفق عليه ، وقدّر ظروفه ، وسلك معه مسلك الطبيب يشخص الداء ، ويصف الدواء ؛ فنى رأيى أنه من الواجب أن تدرس هـذه المادة على أنها فرع من فروع علم النفس بمعاهد المعلمين والمعلمات .

وقد علمت أن هذا العلم نشأ فى الشرق ، ونما به وترعرع ، ثم انتقل إلى الغرب فزها وازدهر ؛ فإن نحن أعدناه وانتفعنا به كان بضاعتنا ردت إلينا . فلنعمل على أن يعاد إلينا ، ويرتفع شأنه بيننا . ولنعرف للشرق فضله ؛ فهو دائماً مبعث النور ، ومنبع الحكمة ، ومنهل العرفان .

لنتجه فى نهضتنا إلى الشرق المشرق ، والحضارة الشرقية التى ازدهرت حينًا من الدهر ، فقد نجد فى بقاياها مايعيننا ، ويسد حاجتنا ، ويرشدنا إلى الطريق السوى . وليس من الحزم فى شىء أن نتجه دائماً إلى الحضارات الغربية ، ونحن نراها تنهار ، وتحترق ، ويأكل بعضها بعضًا .

أيها الشرقيون : إن لنا تاريخًا فلنعتبر به ، وإن لنا حضارة فلنقتبس من نورها .

لا تقولوا حطنا الدهر فما ... هو إلا من خيال الشعراء
هل علمتم أمة فى جهلها ... ظهرت فى المجد حسناء الرداء
باطن الأرض من ظاهرها ... إنما السائل من لون الإناء
نخذوا العلم على أعلامه ... واطلبوا الحكمة عند الحكماء
واقرءوا تاريخكم واحتفظوا ... بفصيح جاءكم من فصحاء
أنزل الله على ألسنهم ... وحيه فى أعصر الوحى الوضاء
واحكموا الدنيا بسلطان فما ... خلقت نصرتها للضعفاء
واطلبوا المجد على الأرض فإن ... هى ضاقت فاطلبوه فى السماء

مراجع الكتاب

أولا — باللغة العربية

١ — مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير للإمام محمد فخر الدين الرازى ـ طبعة المطبعة الشرفية المصرية سنة ١٣٢٧ هـ

٢ — تفسير القرآن الكريم المسمى «روح المعانى» للعلامة الآلوسى ـ طبعة المطبعة البهية ببولاق سنة ١٣١٠ هـ

٣ — الشفاء فى الفلسفة للشيخ الرئيس ابن سينا ـ طبعة إيران سنة ١٣٠٣ هـ

٤ — القانون فى الطب « « ـ دار الطباعة (المطبعة الأميرية) سنة ١٢٩٤ هـ

٥ — تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق لابن مسكويه ـ طبعة المطبعة الحسينية المصرية سنة ١٣٢٩ هـ

٦ — مقاصد الفلاسفة للإمام أبى حامد الغزالى ـ طبعة مطبعة السعادة سنة ١٣٣١ هـ

٧ — تهذيب الأخلاق المنسوب لمحيى الدين بن عربى ـ الرسالة الخامسة من مجموعة الرسائل الكبرى ـ طبعة مطبعة كردستان العلمية سنة ١٣٢٨ هـ

٨ — المقدمة للعلامة ابن خلدون ـ طبعة المطبعة الخيرية المصرية سنة ١٣٢٢ هـ

٩ — عيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أُصَيْبعة ـ طبعة المطبعة الوهبية المصرية سنة ١٢٩٩ هـ

١٠ — إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى ـ طبعة مطبعة السعادة سنة ١٣٢٦ هـ

١١ — بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب للآلوسى ـ طبعة المطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٣٤٢ هـ

١٢ — العهد القديم

١٣ — العهد الجديد

ثانياً — باللغة الفارسية

١٤ — چهارمقاله للنظامى العروضى السمرقندى مطبعة ليدن بهولندة سنة ١٣٢٧ هـ

ثالثاً — باللغة الإنجليزية

15 - Dictionary of Psychology and Philosophy, Edited by Baldwin, Articles: Magic, Insanity, Sanity, Psychotherapy and Psychopathology.
16 - Psychotherapy, Sientific and Religious, by Marcus Gregory.
17 - Principles of Psychotherapy, by Dr. Pierre Janet.
18 - Psychotherapy, Its Doctorine and Practice, by Elizabeth Severn.
19 - Fundamentals of Psychiatry, by Edward A. Strecker.
20 - A Handbook of Psychiatry, by Lichtenstein and Small.
21 - The Psychology of Medicine by T. W. Mitchell.
22 - Medical Psychology and Psychical Research, by T.W. Mitchell
23 - The Problems of Psychopathology, by T. W. Mitchell.
24 - Mind and Medicine, A Lecture, by W. H. R. Rivers.
25 - Temporary Schools of Psychology, by Robert S. Woodworth.
26 - A Hundred Years of Psychology, by J. C. Flugel.
27 - A Manual of Mental Diseaees, by Lodge Patch.
38 - Self Mastery Through Consious Autosuggestion, by Emile Coué
29 - Mental Self Help, by Edwin Ash.
30 - Self Training, by Ernest Hunt.
31 - Your Inner Self, by Louis E. Disch.
32 - The New Psychology, by Mc. Lellan.

فهرس الكتاب

صفحة الموضوع

٣ ـ التمهيد

٩ ـ الباب الأول

عرض تاريخى للعلاج النفسانى

١١ ـ الفصل الأول : العلاج النفسانى قبل ظهور السيد المسيح ، ا ـ العلاج بالسحر : (١) تمهيد : السحر وتأثيره فى النفوس ، ١٦ ـ ٢ ـ العلاج بالسحر فى مصر القديمة، ١٦ ـ ٣ ـ العلاج بالسحر فى بابل ، ١٨ ـ ٤ ـ العلاج بالسحر فى بلاد الإغريق ، ٢١ ـ (ب) العلاج بالتدين والتطهر من الذنوب، ٢٤ ـ (حـ) شرح وتعليق.

٣٣ ـ الفصل الثانى : العلاج النفسانى فى القرون المسيحية الأولى (ا) علاج المرضى على يد السيد المسيح، ٣٦ ـ (ب) علاج المرضى على يد القديسين المسيحيين .

٤٠ ـ الفصل الثالث : العلاج النفسانى فى جاهلية العرب وصدر الإسلام (ا) فى الجاهلية ، ٤٥ ـ (ب) العلاج بالقرآن .

٥٠ ـ الفصل الرابع : العلاج النفسانى عند فلاسفة العرب ، (١) ـ علاج الأمراض الجسمية والعقلية ، ٥١ ـ ابن سينا يعالج مرض العشق ، ٥٤ ـ ابن سينا يعالج مرض المالنخوليا ، ٥٦ ـ ابن سينا يتحدث عن علاج الرثية (الروماتزم) ، ٥٧ ـ جبريل طبيب الرشيد يعالج الرثية ، ٥٨ ـ محمد ابن زكريا الرازى يعالج الرثية ، ٦١ ـ ابن سينا يشرح الأساس الفلسفى للعلاج النفسانى ، ٦٢ ـ ابن مسكويه يشرح الأساس الفلسفى للعلاج النفسانى ، ٦٣ ـ الإمام الغزالى يشرح الأساس نفسه ، ٦٣ ـ (٢) ـ علاج الأمراض الخلقية عند العرب ، ٦٥ ـ رأى ابن مسكويه فى تأثير الغضب فى الجسم والعقل والسلوك ،

٦٧ ـ رأى ابن مسكويه فى أسباب الغضب ، ٦٧ ـ رأى الإمام الغزالى فى أسباب الغضب ونتائجه ، ٧٠ ـ رأى الإمام الغزالى فى طرائق علاج الغضب ، ٧٤ ـ محي الدين ابن عربى يبين آثار الغضب، ٧٦ ـ محي الدين ابن عربى يبين طرائق علاج الغضب.

٧٩ ـ الفصل الخامس: العلاج النفسانى فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر: (ا) فى أوربة : ٧٩ ـ النظرية المسمرية ـ المناطيسية الحيوانية ، ٨٠ ـ طريقة أبى فاريا :التنويم المغناطيسى فى رأى بريد وشاركوت ، ٨١ ـ طريقة مدرسة نانسى ومسيو كوى ـ العلاج بالإيحاد ، ٨٢ ـ (ب) فى أمريكا : علاج «العلماء المسيحيين»، ٨٥ ـ خلاصة مذهبهم ، ٨٨ ـ العلاج الجثمانى أو الطبيعى .

٩٢ ـ الفصل السادس : العلاج النفسانى فى القرن العشرين ، ٩٢ ـ ا ـ تمهيد فى نشأة التحليل النفسانى ، ٩٥ ـ (ب) فرويد ، ٩٧ ـ رأيه فى تكون العقل ، ٩٨ ـ العقل الباطن فى نظره ، ٩٩ ـ منزلة الغريزة الجنسية عنده ، ١٠٠ ـ (ح) بين فرويد وآدلر ، ١٠٠ ـ رأى آدلر فى منشأ الأمراض العصبية ، ١٠١ ـ رأيه فى أسلوب الحياة وعوامل تكونه ، ١٠٢ ـ الغرض من التحليل النفسانى فى نظره ، ١٠٣ ـ (د) بين فرويد ويونج ، ١٠٤ ـ رأى يونج فى أسباب الأمراض العقلية ، ١٠٦ ـ رأيه فى الليبيدو .

الباب الثانى

أسباب الأمراض العقلية وطرائق علاجها

١٠٩ ـ الفصل السابع : صحة العقل ومرضه .

١١٤ ـ الفصل الثامن: الأمراض العقلية : ـ أسبابها ـ أقسامها ـ تشخيصها، ١١٤ ـ بين المرض الجثمانى ومرض العقل ، ١١٥ ـ لكل مرض عقلى سبب ، ١١٦ ـ أسباب الأمراض العقلية : الأسباب المعرضة : ١١٧ ـ الوراثة ،

١١٨ ـ السنّ ، ١١٩ ـ العوامل البيئية العامة ، ١٢١ ـ العوامل البيئية الخاصة ، ١٢٢ ـ المهنة ، ١٢٣ ـ الإصابة السابقة ، ١٢٤ ـ الأسباب المثيرة أو المباشرة التى يغلب فيها التأثير الجثمانى ، ١٢٦ ـ الأسباب المباشرة التى يغلب فيها التأثير العقلى ، ١٢٦ ـ أثر الانفعالات فى الحياة ، ١٢٨ ـ أثر ضبط الانفعالات فى توجيه السلوك وتقويمه ، ١٢٩ ـ حقائق هامة خاصة بالانفعالات ، ١٣١ ـ تقسيم الأمراض العقلية: الأمراض العضوية ـ الأمراض الوظفية ـ الأمراض التسممية ، ١٣٢ ـ اختبار المريض وتشخيص مرضه .

١٣٤ ـ الفصل التاسع : الأسس التى يقوم عليها العلاج النفسانى ،

١٣٤ ـ الأساس الأول : العلاقة بين الجسم والعقل ، ١٣٥ ـ تأثير الجسم فى العقل، ١٣٦ ـ تأثير العقل فى الجسم ، ١٣٨ ـ الأساس الثانى ـ الأساس الثالث ، ١٣٩ ـ الأساس الرابع ثم الخامس ثم السادس ، ١٤٠ ـ ابن مسكويه يفرق بين المرض العقلى والمرض الجثمانى .

١٤٢ ـ الفصل العاشر : طرق العلاج النفسانى ، ١٤٢ ـ شروط العلاج الخاصة بالمريض ثم الخاصة بالطبيب ، ١٤٣ ـ وسائل العلاج العامة ،

١٤٤ ـ وسائل العلاج الخاصة : العلاج الجثمانى ـ التنويم المغناطيسى ـ ١٤٤ ـ (٣) التحليل النفسانى .

١٤٦ ـ (٤) الإيحاء ، ١٤٩ ـ (٥) التحريض ، ١٥٠ ـ (٦) تحديد التربية ، ١٢٥ ـ (٧) التنفيس .

الخاتمة . العلاج النفسانى والتربية .

١٥٣ ـ إثر الإيحاء فى التربية ، ١٥٦ ـ آثار تطبيق قوانين العلاج النفسانى فى الحياة المدرسية وفى إصلاح المجتمع ، ١٦١ ـ مراجع الكتاب .

استدراك

ص	س	الخطأ	الصواب
٤٣	٥	الرقبة	الرقية
»	١١	الرجاء	الرجال
٤٤	٦	للفرضين	للغرضين
»	٧	للأمراض	للأغراض
٩٩	٨	فتتضمن من المبادئ	فيتضمن المبادئ
١٠٢	٧	مال إليها	مال إليه
١٠٣	١٠	يصير	يستمر
١٢٠	١٧	تُفْرِض	تُفْرَض
١٢٢	٤	شذْرا	شزْرا
١٢٦	١٠	تعريفها	تعرُّفها
»	١١	التى	الذى
»	١٨	إذا أصلح	إذا صَلُح
١٢٧	٣	كذلك	فكذلك
١٣١	٦	إلى أن آثارها	إلى أن تظهر آثارها
١٤٠	٩	كما تجد	كما نجد

صح ٤٦

مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية

يشرف على إصدارها : الدكتور منصور فهمي باشا رئيس الجمعية ، والدكتور على عبد الواحد وافى وكيلها

يشترك فيها أعلام الباحثين فى الفلسفة والاجتماع . تستأنف النهضة العلمية فى الشرق وتجعل مسائل الفلسفة فى متناول الجميع ، ضرورية لكل مثقف وباحث .

ظهر منهـــا :

١ — فيلسوف العرب والمعلم الثانى : للأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق
شيخ الجامع الأزهر والرئيس الفخرى للجمعية

٢ — الأسرة والمجتمع : للأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى
أستاذ الاجتماع بكلية الآداب

٣ — شخصيات ومذاهب فلسفية : للدكتور عثمان أمين
مدرس تاريخ الفلسفة بكلية الآداب

٤ — الحياة الروحية فى الإسلام : للدكتور محمد مصطفى حلمى
مدرس الفلسفة الإسلامية والتصوف بكلية الآداب

٥ — الملامتية والصوفية وأهل الفتوة : للأستاذ الدكتور أبو العلا عفيفى
رئيس قسم الفلسفة بجامعة فاروق

٦ — التصوف وفريد الدين العطار : للأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام بك
عميد كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

٧ — المسئولية والجزاء : للأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى
أستاذ الاجتماع بكلية الآداب

٨ — التنبؤ بالغيب عند مفكرى الإسلام : للدكتور توفيق الطويل
مدرس الفلسفة بجامعة فاروق الأول

٩ — الدين والوحى والإسلام : للأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق
شيخ الجامع الأزهر والرئيس الفخرى للجمعية

١٠ — اللغة والمجتمع : للأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى
أستاذ الاجتماع بكلية الآداب

١١ — إرادة الاعتقاد لوليم جمس : ترجمة الدكتور محمود حب الله
أستاذ الفلسفة وعلم النفس بكلية أصول الدين

١٢ — المشكلة الأخلاقية والفلاسفة لأندريه كريسون : ترجمه الدكتور عبد الحليم محمود
المدرس بكلية اللغة العربية
: والأستاذ أبو بكر زكرى
المدرس بكلية أصول الدين

١٣ — العلاج النفسانى قديماً وحديثاً : للأستاذ حامد عبد القادر
الأستاذ بكلية دار العلوم

DATE DUE

JAFET LIB.
30 [illegible] 2004
Circulation Dept.

131.3:A13A:c.1
عبد القادر ،حامد
العلاج النفساني قديما وحديثا
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01001533

AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT